الفصل السادس

المسكوت عنه عن فلسطين

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

1 دروس الشعوب

أثارت انتباهى عبارة جاءت فى سياق الحديث الذى أجراه الصحفى الإسرائيلى مع الرئيس حسنى مبارك إذ قال عند الحديث عن عودة اللاجئين الفلسطينيين ووجهه ينطق بكم هائل من الغل والحقد «لقد جئنا لكى نقيم دولة يهودية» مما يعنى أنهم ليسوا أصحاب الأرض الفلسطينية ولكنهم جاءوا من شتى بقاع العالم لاغتصاب الحقوق التاريخية الأصيلة للشعب الفلسطينى ولإقامة كيان عنصرى متغطرس قوامه العنف والكراهية المتأصلة ضد كل ما هو فلسطينى وعربى.

ولعل مشهد مصرع الطفل محمد الدرة وهو فى حضن أبيه هو التطبيق النموذجى لجوهر وحقيقة موقف الإسرائيلى اليهودى من كل هو عربى – وتسطع هذه الحقيقة فى وجه الجميع خصوصاً بعد أن طرحت انتفاضة الأقصى سؤالاً جذرياً عن مشروعية الدولة اليهودية وذلك فى سياق طرحها للحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى التى حاولت إسرائيل أن تمحوها من الذاكرة الجماعية للرأى العام العربى والعالمى طوال نصف قرن.

فقد عاش الإسرائيليون نصف قرن وهم ينعمون بفقدان ذاكرة جماعى عن الفلسطينيين الذين عاش الإسرائيليون فى أرضهم وفى بيوتهم ولم يتساءل أحد عن هذا الشعب الذى عاش قروناً على هذه الأرض وبنى هذه البيوت التى احتلها الإسرائيليون واغتصبوا ما تبقى فيها من آثار وما علق على حوائطها من صور.. الشعب الذى زرع بساتين الريتون والبرتقال التى أنشأ عليها الإسرائيليون

مستعمراتهم.

لقد جاءت الانتفاضة لتطرح بقوة على العالم أجمع حق اللاجئين فى العودة وتعويضهم طبقاً لقرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤. ولكى تعيد إلى الأذهان جريمة النكبة والخوف العنصرى الإسرائيلى من المجهول من القتيل الذى بعثت فيه الحياة فعاد يطالب بحقوقه من قاتله. ولذلك امتلأت الصحف الإسرائيلية بالتحذير من عودة ملايين اللاجئين الفلسطينيين الذين يصل تعدادهم حسب السلطة الفلسطينية إلى خمسة ملايين، ولكن تشير سجلات وكالة غوث اللاجئين إلى ٨,٣ مليون لاجئ فلسطينى وتقدر صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية أن الذين يريدون العودة يتراوح عددهم بين ٢ و٣ ملايين مما يعنى فى نظرها انهيار الطابع اليهودى لإسرائيل ومن ثم إلى قيام دولة ثنائية القومية. وبرغم اعتراف الصحف الإسرائيلية بالظلم الذى وقع على الفلسطينيين إلا أنها لا تذكر أبداً من المسئول عن هذا الظلم بل تصل بها الصفاقة إلى حد مطالبة القيادة الفلسطينية بمصارحة الآلاف من اللاجئين وليس الملايين باستحالة عودتهم وأن عليهم أن يلقوا مفاتيح ديارهم فى يافا وحيفا ويكفوا عن التمسك بحلم العودة الذى استمر من جيل إلى جيل وأن يقبلوا توطينهم أو تسفيرهم إلى بلاد أخرى.

هكذا يطالب الإسرائيليون بوقاحة منقطعة النظير باستمرار جريمة التطهير العرقى بل واقتراف جريمة جديدة هى نقل السكان الفلسطينيين وتوطينهم القسرى فى أوطان أخرى وحرمانهم إلى الأبد من وطن آبائهم وأجدادهم، متجاهلين عن عمد قرار الأمم المتحدة ١٩٤ الذى يطالب الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة منذ ١٩٤٨ وعصابات الهاجاناه وأراجون وشتيرن والوكالة اليهودية والصندوق اليهودى بعودة اللاجئين وتعويضهم عن الأضرار التى لحقت بهم.

وهذا يعنى فى القانون الدولى أنه ليس من حق اللص قانونياً وأخلاقياً أن يحرم أصحاب الحق من استعادة الأملاك المسروقة وأن هذا الحق لا يسقط بالتقادم، ومع ذلك فإن استمرار الطابع اليهودى لإسرائيل فيه قدر كبير من التضليل لأن استمرار التفوق العددى لليهود بفعل الهجرة سوف يقل حتماً فى السنوات القادمة بسبب فقدان الأمان واستمرار مطالبة الفلسطينيين بحقوقهم المشروعة. ويذكرنى الوضع الفلسطينى بما حدث لشعب جنوب أفريقيا الذى ظل يناضل ٣٥٠ عاماً حتى حصل على حقوقه كاملة فى الأرض والسيادة الوطنية. وقد طرحت على المناضلة وينى مانديلا هذا السؤال كيف احتفظتم بهذه الجذوة الوطنية جيلاً بعد جيل، فأجابت، لقد كانت الأمهات الأفريقيات يهمسن كل ليلة فى آذان أطفالهن بعد الشهر الثالث لولادتهن (البيض سرقوا أرضك) وعندما يشتد عود الطفل فى السابعة يكون هذا الهمس قد تحول إلى وعى كامل بحقوقه المسلوبة مما يجعله مؤهلاً للانخراط فى صفوف المناضلين، وهكذا استمر النضال ضد التفرقة العنصرية البيضاء عبر ما يزيد على مائة جيل من الأفارقة وأخيراً حصلوا على حقوقهم عام ١٩٩٤ بعد مفاوضات شاقة أجراها المناضل نيلسون مانديلا مسنوداً بنضال شعبى متعدد الأبعاد وشمل جميع الجبهات العسكرية والسياسية والدبلوماسية، وهذا هو درس الشعوب الذى لم ولن يستوعبه المغتصبون فى كل العصور. والحق الفلسطينى لن يعود لأصحابه الا باستمرار نضالهم الذى تواصل عبر سبعة أجيال وسوف يمتد موقظاً الضمائر والإرادات لدى الجميع ومتوجهاً بصلابة نحو تحقيق هدفه النبيل مهما طال الزمن.

الأهرام – ٦/ ٣/ ٢٠٠١

2 || الانتفاضة طريق الخلاص للفلسطينيين

لقد أكدت الانتفاضة الفلسطينية دروس وخبرة حركات التحرر الوطنى التى انطلقت فى ظل موازين القوى العالمية التى لم تكن فى صالحها، وانتهت بالانتصار، إذ أكدت أن القوة ليست مفهوماً مادياً فحسب، بل لها بعد معنوى مهم، وأن أساليب وأنماط استخدام القوة قد تعوض الخلل فى موازينها المادية.

كما أثبتت فشل سياسة التفاوض فى ظل اختلال موازين القوة، فهى لا يمكن أن تفضى إلا إلى تسويات مذلة، وأن ممارسة النضال التحررى وحدها هى التى يمكن أن تؤدى إلى مفاوضات مشرفة بعد أن يتأكد الخصم الاستعمارى أنه أمام خصم يستحيل كسر إرادته ومن ثم يصبح التفاوض أمراً ضرورياً.

لقد ردت الانتفاضة الفلسطينية على هؤلاء المتخوفين من استمرار النزيف الفلسطينى دون ثمة أمل فى الوصول إلى تحقيق النصر، فالواقع أن كل حركات التحرر الوطنى قد اضطرت إلى ممارسة النضال، بتضحيات مادية وبشرية هائلة، كى تحصل على حقوقها، فلم يحدث أن تنازل الاستعمار عن مستعمراته طوعاً..

هذه دروس الثورة الجزائرية، والشعوب الأفريقية فى أنجولا، وموزمبيق، وزيمبابوى، وناميبيا، وجنوب أفريقيا، والشعب الفيتنامى العظيم.

لقد استمر النضال الفلسطينى رغم ضعف ظهيره العربى وتواطؤ وعجز الحكومات العربية والمناخ العالمى المعادى، إذ أدرك الشعب الفلسطينى الحقيقة

القاسية التى تتلخص فى ضرورة أن يسترد زمام القضية بنفسه، ولا يتركها فى أيدى القيادات العربية العاجزة والمتواطئة ومن هنا كانت الانتفاضة الأولى فى ديسمبر ١٩٨٧م، والتى جاء اتفاق أوسلو للقضاء عليها، ثم قامت الانتفاضة الثانية فى سبتمبر عام ٢٠٠٠م كى تزيل وصم أوسلو، فقد أدرك الشعب الفلسطينى أن النضال الوطنى هو الخيار الوحيد المتاح لمواجهة الاحتلال الصهيونى الاقتلاعى، لأن البديل الآخر هو الامتناع عن المقاومة، مما يعنى الحفاظ على استمرار الخلل فى ميزان القوى بين الشعب الفلسطينى والإسرائيليين، وصولاً إلى تكريس الوضع الراهن أو تحقيق التسوية المذلة.

ولقد نجحت الانتفاضة الفلسطينية خلال عام واحد فى تحقيق ثلاثة إنجازات مهمة، أولها: إظهار وإبراز قدرة المواطن الفلسطينى العادى فى مواجهة القوى العاتية، سواء كانت إسرائيل أو أمريكا، أو الحكومات العربية بما فيها السلطة الفلسطينية، إذ أصبحت جميعها على مرمى حجر فى يده بعد أن سقطت هيبتها ورهبتها.

كما نجحت الانتفاضة فى تحقيق الوحدة الوطنية فى الشارع الفلسطينى.. إذ أسقطت الخلافات الحزبية بين الفصائل الفلسطينية وأعلت الشأن الوطنى على ما هو حزبى.

ويتمثل الإنجاز الثانى، فى الصمود الرائع للشعب الفلسطينى أمام الآلية العسكرية الإسرائيلية، إذ برزت قدرتها على الرد الموجع للعنف الصهيونى وإيقاع خسائر كبيرة لدى الجانب الإسرائيلى، تمثلت فى ضرب السياحة، وزيادة الهجرة العكسية، وتباطؤ الهجرة الوافدة، وانتزاع الإحساس بالأمان لدى الإسرائيليين. أما الإنجاز الثالث على المستوى العربى، فقد ضخت الانتفاضة دماء جديدة للذاكرة

والإرادة القومية وجددت حركة المقاطعة للعدو الإسرائيلى، رغم القيود الكثيرة التى لا تزال تكبل الحركة الشعبية فى الوطن العربى، إن الموقف الدولى تجاه الانتفاضة لا يزال متراجعاً ومنحازاً للادعاءات الإسرائيلية ولا شك أن استمرار الانتفاضة هو طريق الخلاص الوحيد للشعب الفلسطينى لإجبار العالم على الاعتراف بحقوقه الوطنية المشروعة.

صوت الجامعة ٧ نوفمبر ٢٠٠١

obeikan.com

3 المؤرخون الجدد

هناك ظاهرة جديدة تستحق لانتباه تتعلق بما يسمى المؤرخون الجدد داخل إسرائيل وخارجها ويعمل معظم أعضائها فى الجامعات الإسرائيلية والأمريكية والبريطانية فى حقول معرفية مثل التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس ويقدمون فى دراساتهم رؤية تحليلية لواقع الكيان الصهيونى تختلف جذرياً عن الرؤية الرسمية التى عملت إسرائيل على إشاعتها وغرسها فى الوعى الإسرائيلى والغربى عبر وسائل الإعلام ومناهج التعليم والأفلام والمسلسلات. وتعد كتابات هؤلاء المؤرخون الجدد بمثابة صدمة للوعى الصهيونى الذى تغذى طوال ما يزيد على نصف قرن على أساطير ملفقة زائفة تتحدث عن طهارة السلاح اليهودى وبراءة إسرائيل من عمليات طرد الفلسطينيين وذبحهم وترحيب إسرائيل بالسلام فى الوقت الذى رفض العرب مد يدهم إليها وتعد دراسة الباحث الإسرائيلى بينى موريس عن «نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧-١٩٤٨) بمثابة البداية الفعلية لتيار المؤرخين الجدد وقد أثارت ضجة كبرى لدى المؤسسين الأكاديمية والسياسية فى إسرائيل بسبب تفكيكها أسطورة الرواية الرسمية حول موضوع اللاجئين وإبرازها الدور الذى قامت به المؤسسة العسكرية الإسرائيلية فى طرد أعداد ضخمة من الفلسطينيين بقوة السلاح حتى عام ١٩٥٠ ومن أبرز هذه الدراسات التى جمعها الكاتب الفلسطينى حسن خضر فى كتاب بعنوان «الأوانى المهشمة – دراسات فى نقد الصهيونية» رام الله – مارس ٢٠٠١ تلك الدراسة التى

قدمها بيت هالحمى الأستاذ بجامعة حيفا والمتخصص فى علم نفس الدين حيث أبرز أن إسرائيل تعيش منذ عام ١٩٧٣ أزمة مرجعية وإيمان وبعزو الكاتب الأسباب الكامنة وراء الشعور الحاد بتفكك المجتمع إلى الزلزال الذى ضرب إسرائيل فى حرب ١٩٧٣ ثم حرب لبنان ١٩٨٢ – ١٩٨٥ وجاءت الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٧ كى تقضى على ما تبقى من وهم القوة الإسرائيلية التى لا تقهر والرؤية الصهيونية التى وعدت بانتهاء التاريخ المأساوى لليهود لم تفعل شيئاً من هذا القبيل وأصبحت إسرائيل فصلاً جديداً فى تاريخ المحنة اليهودية.. فقد أجبرت الانتفاضة الأولى المجتمع الإسرائيلى على فتح عيونه على حقيقة وجوده الاستعمارى فى مواجهة السكان الأصليين وأخذ الشباب الإسرائيلى الذى حاولت المؤسسة السياسية المنافقة أن تزين له مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» يتساءل عن الحل وعن الساسة الذين يتكلمون عن الديمقراطية فيما هم يمارسون الاستعمار.

ويختتم الكاتب دراسته بضرورة التعامل مع قيام الدولة العبرية بوصفها فعلاً كولونياليا ينتمى فى طبيعته إلى التفكير الاستعمارى الأوروبى خلال القرن التاسع عشر الذى كان يستند إلى نظريات التفوق العرقي والعنصرية العلمية التى بررت هيمنة الاستعمار على الشعوب الأدنى عرقياً ويرى أن أباء الحركة الصهيونية بدءاً من هرتزل وانتهاء بوايزمان نظروا إلى الفلسطينيين نظرة أوروبية متمركزة على ذاتها. ويواصل الباحث «يورى رام» تأكيد نفس الفكرة التى تنظر إلى المجتمع الإسرائيلى بصفته نوعاً من المجتمعات الكولونيالية الاستيطانية إذ يتناقض مع صميم الفكر العربى الفلسطينى.. وقد انتقلت هذه الرؤية إلى الدوائر الرادكالية الغربية فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات وبرزت على الأخص فى دراسة المستشرق الفرنسى

مكسيم ردولسون «إسرائيل – دولة استعمار استيطانى» ويرى يورى أن المنظور الكولونيالى فى دراسة الصهيونية يؤدى إلى تغيير رؤية علم الاجتماع الإسرائيلى الذى كان يتجاهل فى الماضى الفلسطينيين وحقوقهم كشعب كما ينظر إلى الجولة الثانية من الاستعمار بعد فتح الحدود عام ١٩٦٧ إنها لا تمثل فقط تشويها لحقوق الفلسطينيين وعرقلة الحل السلمى بل تعد خطراً يتهدد نسيج الثقافة السياسية الديمقراطية فى المجتمع الإسرائيلى نفسه.. رغم ما يقال عن عزلة هذه الدراسات داخل الأطر الأكاديمية وعدم قدرتها على التأثير فى صانع القرار الإسرائيلى ورغم الموقف العدائى الذى تقفه منها الأوساط الثقافية السائدة فى إسرائيل علاوة على عدم قدرة معظم هؤلاء الباحثين على الاعتراف بالخطأ التاريخى الذى تمثل فى قيام إسرائيل على أرض الفلسطينيين إلا أن كل هذا لا يمنع من القول إننا إزاء ظاهرة تستحق الاهتمام والبحث عن أسباب ظهورها فى مجتمع إسرائيل المأزوم والذى يبحث عن حلول حتى ولو كانت حرب شاملة تستنزف طاقات شعوب العالم العربى بأكمله.

صوت الجامعة – ٢ أبريل ٢٠٠٢

4 || اليوم الأسود في تاريخ الوطن

عندما تعالت صوات تلاميذ المدارس الابتدائى تهتف «بالروح بالدم نفديك يا فلسطين».. زرفت عيناى الدموع ونظرت إلى جانبى رأيت الدكتورة أمينة رشيد وقد انسابت دموعها وأخذت تحتضننى بشدة قائلة «المبادئ اللى اتحبسنا واعتقلنا وطردنا من الجامعة بسببها لم تذهب هدراً» وكنا نتقدم مع سائر أساتذة جامعة القاهرة صفوف المتظاهرين من شباب الجامعة الذين احتشدوا بالآلاف أمام قبة الجامعة وتسلقوا الأبواب الحديدية رافعين الأعلام الفلسطينية مرددين الهتافات «فلسطين عربية» و«أول مطلب للجماهير قفل السفارة وطرد السفير» و«أول مطلب للجميع وقف يا حسنى التطبيع» و«الصهاينة الأندال ياما قتلوا منا رجال» التفت إلى الدكتور حسن حنفى «حقاً لم نكن نحرت فى البحر انظر إلى هؤلاء الشباب أنهم جميعاً ولدوا وتربوا فى ظل اتفاقية «كامب ديفيد» التى دشنت الصلح مع العدو الصهيونى وأعادت إلينا سيناء منقوصة السيادة وأعطت الحق لمغتصبى أوطاننا أن يأتوا إلى داخل ديارنا يرفعون فوقها أعلامهم يدنسون أرض الوطن ينشرون الفساد ويبذرون البوار فى أرضنا الخصبة ويستقطبون ضعاف النفوس والانتهازين ويستميتون فى نشر أساطيرهم المضللة من خلال الدعايات المسمومة ولكن ها هم أبناء مصر من الأجيال الجديدة يؤكدون الحقيقة الساطعة التى رسخها الآباء والأجداد بدمائهم إن قضية فلسطين قضية مصرية وإن الأمن القومى المصرى لن يتحقق فى يوم ما إلا باستعادة الشعب الفلسطينى لسيادته الوطنية على كامل

التراب الوطني المغتصب.

وعادت بى الذاكرة إلى عام ١٩٧٩ عندما احتشد المثقفون المصريون للرد على اتفاقية كامب ديفيد التى أبرمها السادات مع العدو الصهيونى وشكلنا لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ضد الغزو الصهيونى والإمبريالى وبدأت سلسلة المواجهات بين ضمير الأمة واتفاقية الاستسلام كانت البداية فى معرض الكتاب عام ١٩٨٠ عندما تظاهرنا لمنع إقامة جناحاً للإسرائيليين فى المعرض واعتقلت المجموعة الأولى وأفرج عنها بعد شهر وتوالت اجتماعاتنا وانضمت إلينا نقابات الصحفيين والمحامين ثم المهندسين والأطباء واتحاد العمال واتحاد طلاب الجامعات.

ولا أنسى اليوم الأسود فى تاريخ الوطن ٢٦ مارس ١٩٨٧ يوم فتح السفارة الإسرائيلية عندما ذهبت إلى الكلية مرتدية ثوب الحداد وقد وضعت على صورى العلم الفلسطينى أحطت رقبتى بسلسلة فضية تحمل خريطة فلسطين وكان من المفروض أن ألقى محاضرة لطلاب السنة الرابعة بقسم الصحافة عن تحليل المضمون أخبرتهم بأن الوطن يتعرض لهجمة شرسة تتدثر بأثواب السلام وعليهم أن يختاروا.. أن نتحدث عن تحليل المضمون أو القضية الفلسطينية فهتفوا بحماس «القضية الفلسطينية» وشكلنا فريقين أحدهما يتحدث عن مزايا كامب ديفيد والآخر يتحدث عن المخاطر التى تحملها لنا كمصريين وكعرب ومرت الأيام وفى ٥ سبتمبر ١٩٨١ أعلن السادات قراره باعتقال ١٥٣٦ مصرياً من المعارضين لسياساته وكنت وقتئذ أشارك فى أحد مؤتمرات الأمم المتحدة فى برلين عن التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا وفلسطين ونشرت الصحف أسماء المعتقلين وتصدرت صورتى الصفحة الأولى في صحيفة الأهرام وحاول الأصدقاء منعى من العودة إلى مصر ولكنى أقنعتهم بأن «السجن فى وطنى أفضل لى من الضياع فى أوروبا». وفى

الطائرة العائدة إلى مصر حاولت أن أمهد الموضوع لابنى الذى لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة ووجدت فى المطار مظاهرة بوليسية تنتظرنى ذهب أبنى مع والده وذهبت أنا فى سيارة مصفحة يحيط بى جمع من العساكر المدججين بالسونكى والطبنجات ذهبت إلى مقر مباحث أمن الدولة بوزارة الداخلية طلبوا منى أن أكتب التماساً للسيد الرئيس أتراجع فيه عن موقفى وأعلن توبتى صاحت أمى فى وجوههم مستنكرة ورافضة قائلة «لقد علمت أولادى منذ حرب فلسطين أن أشقائى وأبناء عمومتى الذين استشهدوا فى هذه الحرب كانوا شهداء دفاعاً عن مصر وشرفها وعروبتها وأن معركتنا فى فلسطين هى دفاعاً عن مصر وشعبها ومستقبل أبنائها» صمتوا وذهبت إلى سجن النساء بالقناطر وجدت فى انتظارى كوكبة من المناضلات المصريات د. لطيفة الزيات أستاذتى ومعلمتى وأبرز القيادات الوطنية فى انتفاضة ١٩٤٦ ووجدت د. نوال السعداوى ود. أمينة رشيد والكاتبة صافيناز كاظم ومجموعة من الفتيات المسلمات المحجبات وكانت التهمة الخيانة العظمى مكثنا فى السجن مائة يوم ووزعنا المسئوليات وقمنا بمحو أمية إحدى الفتيات من رفيقات العنبر وخصصنا أوقات النهار للمحاضرات عن الأدب وتاريخ الحضارة وفن وتاريخ مصر والوطن العربى وكان التواصل بيننا وبين العنبر البعيد الذى كان يضم فريدة النقاش وشاهندة مقلد اللتان تم اعتقالهما قبلنا بعدة أشهر كان يتم التواصل يومياً من خلال السجينات حرمونا من الصحف ومن الكتب والورق والأقلام وكانت أمى تحضر كل يوم اثنين تحمل الأطعمة والفواكه والصحف بعد السماح لنا بذلك بعد شهر ونصف الشهر وكانت الأصوات تنبعث من الزنازين مساء كل يوم اثنين مرددة أغنية «مصر يا أمة يا بهية يا أم طرحة وجلابية الزمن راح وأنت جاية.. إلخ».

اغتيل السادات فى ٦ أكتوبر وسمعنا الخبر من راديو ترانزستور أهدته لنا سراً إحدى تاجرات المخدرات «الحاجة مناعة» وكنا نذهب أسبوعياً للتحقيق معنا أمام المدعى الاشتراكى لم يجرؤ السادات ومعاونوه أن يوجهوا لنا التهمة الحقيقية وهى معاداة كامب ديفيد بل لفقوا لنا تهمة العمالة للاتحاد السوفيتى وكان التحقيق يدور حول تسجيلات عن مواقفنا من كامب ديفيد وقد تألمت كثيراً عندما واجهونى بالمحاضرة التى ألقيتها على طلابى يوم ٢٦ مارس ١٩٧٨ وكانوا قد اندسوا بين طلابى وسجلوها فى المدرج ذلك المحراب المقدس انتهكوا حرمته وسجلوا لى ولطلابى أصوات ضمائرنا التى أعلناها بشجاعة. جاء الرئيس حسنى مبارك فأفرج عنا جميعاً وأعادنا إلى جامعاتنا ومواقعنا الوظيفية وكانوا قد نقلونى إلى وزارة الإسكان ونقلوا زملائى ٦٧ أستاذاً جامعياً إلى وزارات أخرى عدنا إلى مواقعنا كى نواصل رسالتنا نحمل لأجيالنا الجديدة الوعى الصحيح بتاريخ الوطن ونضال أبنائه من أجل العزة والكرامة والسيادة الحقيقية.. وللحديث بقية.

صوت الجامعة – ١٠/ ٤/ ٢٠٠٢

5 السلام والاستسلام

ظلت أبواق الدعاية تدق على مدى عشرين عاماً تروج لما يسمى ثقافة السلام باعتبارها مطلباً حيوياً لجميع الشعوب ولكن أى سلام وأى شعوب تقصدون؟ نعم السلام شرط ضرورى لتهيئة الظروف الآمنة للشعوب المستقرة فى أوطانها كى تواصل دورها فى إنتاج الحضارة الإنسانية وازدهارها ولكن هل يمكن الحديث عن السلام بين الشعوب المقهورة وجلاديها وهل يمكن الترويج للسلام بين الشعوب ومغتصبى الأوطان؟.. وهل يمكن أن يترعرع الأطفال ويتشبعون بما يسمى ثقافة السلام وهم يرون آباءهم يقتلون وأمهاتهم تسبى وبيوتهم تدمر فوق رءوسهم وأراضى أجدادهم تنهب عنوة وينتزعون بوحشية من أحضان أوطانهم ويلقى بهم فى العراء ويتم هذا كله تحت سمع وبصر الأمم المتحدة راعية حقوق الشعوب وبمساندة ومباركة القطب الأوحد الذى يتحكم فى مصائر البشرية وأعنى به الولايات المتحدة الأمريكية.. لقد حرصت أمريكا طوال عقدين كاملين على أن تعطى مشروعية أخلاقية وسياسية للكيان الصهيونى وممارساته الوحشية ضد الشعب الفلسطينى ووظفت جميع المنظمات الدولية ووسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة وجمعيات حقوق الإنسان والجامعات ومراكز البحوث ظلت تحاصرنا أينما توجهنا بخطب رنانة ودراسات مزيفة وندوات ومؤتمرات دعائية مكشوفة تضلل الرأى العام وتزيف التاريخ وتستقطب الأعوان والمؤيدين حتى جاء زمن كاد يصدق البعض أكذوبة المحرقة النازية لليهود الأوروبيين ويتعاطف

مع مآساتهم حتى ولو تم حلها على حساب شعب آخر فى قارة أخرى يضم بين صفوفه يهوداً عرفوا كرم العيش واستمتعوا بالأمان خلال عدة قرون ولم يتعرضوا للقهر والأذى أو الاحتقار والازدراء كما حدث لأبناء ديانتهم فى ربوع أوروبا.

لقد أنفقنا الكثير من الوقت والجهد كى نوضح للرأى العام داخل أوطاننا الفرق بين السلام والاستسلام وبين كثير من المفاهيم السامية وتطبيقاتها الخبيثة المغرضة مثل الرسالة الحضارية للرجل الأبيض والتى رفعها المستعمرون الأوربيون كشعار خادع استطاعوا فى ظله أن يستعبدوا شعوب الجنوب وينهبوا ثرواته ويستذلوا أبناءه على مدى قرنين وأكثر وكانت الحركة الصهيونية آخر الحلقات الاستعمارية التى استوعبت تجارب الاستعمار التقليدى المباشر والاستيطانى المتجبر وأضافت إليها مخزون التجربة النازية وابتدعت أساليب جديدة تمثلت فى تشريد واقتلاع شعب كامل من أرضه وإلقائه فى مخيمات الضياع والنفى مستثمرة الظروف الدولية ومساندة بريطانيا العظمى ثم أمريكا الأعظم ومستفيدة من غفلة وتفكك العالم العربى وخيانة بعض حكامه ومستندة إلى الخدعة الكبرى «شعب بلا أرض لأرض بلا شعب» واطمأنت الشعوب الأوروبية إلى الخلاص نهائياً من المشكلة اليهودية التى سببت لهم عذابات وأوجاعاً لا تزال محفورة تحت جلودهم استكانت ضمائرهم عندما أزاحوا عن كاهلهم هذا الورم الخبيث وألقوا به إلى عالمنا العربى التعيس. لقد ظل الرأى العام الأوروبى على مدى أربعين عاماً بعد وقوع نكبة ضياع فلسطين واستيلاء الصهاينة عليها لا يعترفون بكلمة فلسطين ويزيحونها عمداً عن أسماعهم وأبصارهم إراحة لضمائرهم وحرصاً على استبعاد عودة هذا الشبح الوباء، عودة اليهود إلى الأوطان التى نزحوا منها بولندا وألمانيا وروسيا وتشيكوسلوفاكيا.. إلخ ولكن مهما غابت الحقيقة طويلاً فإنها لا تموت ولا تندثر طالما هناك بشر يمتلكونها

ويفقأون بها عيون العميان والمتعامين.. ظهر الشعب الفلسطينى المشرد والمشتت فى أكثر من خمسين دولة برز كياناً موحداً فى منظمة التحرير الفلسطينية وواصل مسيرة الآباء منذ صدور الوعد المشئوم وعد بلفور وتوالت المعارك والحروب وكانت مصر هدفاً رئيسياً حرصت الصهيونية على كسر شوكتها واحتوائها لأنها كانت تدرك مبكراً استحالة تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين دون احتواء مصر حرباً أو سلما وقد عبر عن ذلك هرتزل فى زيارته لمصر عام ١٩٠٤ عندما قال فى خطبته الشهيرة بنادى المكابى بالفجالة «من هنا نبدأ من مصر طريقنا الوحيد إلى فلسطين».

وعلينا نحن المصريين أن ندرك هذه الحقيقة كما أدركها الصهاينة وحرصوا على تطبيقها بجميع الوسائل فى الحرب وفى السلم فإذا كانت فلسطين هى البوابة الشرقية لمصر فإن مصر هى العمق التاريخى والحضارى والبشرى لفلسطين، هذا ما تؤكده حقائق التاريخ وخبرة أربع حروب فقدنا خلالها ١٥٠ ألف شهيد مصرى قتلهم الصهاينة عدا الأسرى والمعوقين فهل وعينا الدرس؟!

صوت الجامعة – ١٧ إبريل ٢٠٠٢

6 حوار أمريكي فلسطيني

فى ظل الملحمة البطولية للشعب الفلسطينى فى مواجهة المذابح وحرب الإبادة الإسرائيلية وصل إلى أسماعنا هذا الحوار بين مواطن أمريكى وآخر فلسطينى..

الأمريكى: لماذا كل هذا الحقد على أمريكا ولماذا الابتهاج والرقص لدى بعض العرب على ما حدث فى نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر ونحن لم نرقص ابتهاجاً بقتل الفلسطينيين والعرب.

الفلسطينى: سوف أرد عليك بسؤال.. لماذا كل هذا التجاهل للحقوق العربية فى فسطين والعراق؟ نعم معظمنا حاقد على السياسة الأمريكية وانحيازها وتغطيتها جرائم إسرائيل وساخط على إصرار أمريكا على ضرب ومحاصرة الشعب العراقى.. نحن ضد قتل الأبرياء فى كل مكان فى فلسطين والعراق وفى أمريكا وأفغانستان ولكننا فى ذات الوقت ضد السياسات الأمريكية المعادية لنا والتى تتجسد فى تزويد إسرائيل بأحدث الأسلحة الالكترونية لإبادة الشعب الفلسطينى وتدمير منازله واغتيال أطفاله وقياداته والإصرار على حرمانه من الحماية الدولية التى نطالب بها منذ اندلاع الانتفاضة وأسألك هل توافق على ذلك؟!

الأمريكى: ماذا يريد الفلسطينيون بالضبط..؟

الفلسطينى: إنهم يريدون استرداد أرضهم المغتصبة وتطبيق قرارات الشريعة الدولية ٢٤٢، ٣٣٨، ١٩٤.

الأمريكى: وهل هناك أمريكيون يحاربون فى الصفوف الإسرائيلية ضدكم؟ إنه

صراع إقليمى بين قوتين ويجب أن يحل بالطرق السلمية والتفاوض بينهما.

الفلسطينى: لقد حاولنا منذ مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو أن نخوض الطريق السليم ولكن التعنت الإسرائيلى هو الذى دفعنا إلى حمل الحجارة ولا أقول الأسلحة النارية ضد من أغتصبوا أرضنا وشردوا شعبنا.

الأمريكى: يجب أن تتعاون كل الدول لاقتلاع الإرهاب من جذوره.

الفلسطينى: أود أن أوضح لك أن هناك فرقًا كبيرًا وجذرياً بين ما تسمونه إرهاباً وبين المقاومة الوطنية المشروعة ضد الاحتلال والتى يقرها القانون الدولى كما أن التاريخ الأوروبى والأمريكى ملىء بصور المقاومة فلماذا تحرمون علينا ما تحلونه لأنفسكم، إن العنف الفلسطينى ناجم طوال تاريخه من تجاهل المجتمع الدولى وصمته عن مأساة الشعب الفلسطينى ومطالبه المشروعة لاستعادة أرضه وإقامة دولته المستقلة.

أنتم تقولون إنكم لم تشاركوا بجنود أمريكيين لمحاربتنا بشكل مباشر ولكنكم تدعمون إسرائيل مادياً بالسلاح والمعونات الاقتصادية وسياسياً بالفيتو الأمريكى فى الأمم المتحدة بتأييد غطرستها وعدم التزامها بقوانين الشرعية الدولية، وأكرر سؤالى لماذا إصراركم على معاداتنا وتجاهلكم لحقوقنا ولماذا تدفعوننا إلى اليأس والإحباط والتضحية بحياة الآلاف من شبابنا وأطفالنا دون ذنب جنيناه ضد أمريكا أو سواها من الدول.. وأود أن أؤكد لك أن محاربة الإرهاب من جذوره كما تدعون لا يتحقق من خلال شن حرباً على ملايين الأبرياء من المسلمين والعرب واستمراركم فى ازدواجية المعايير ومساندة نظم الحكم الدكتاتورية والفاشية الفاسدة لأن الإرهاب يتغذى من غياب العدل على المستوى الدولى ومن الأنظمة الدكتاتورية الفاسدة ومن تجاهل الحقوق المشروعة للشعوب فلماذا تطلبون منا أن نساندكم وأنتم تتجاهلون أبسط حقوقنا حقنا فى الحياة الكريمة التى تتمتعون بها وتحرمونها على سواكم.

صوت الجامعة ٢٤ أبريل ٢٠٠٢

7 نكبتنا وعيد استقلالهم

جاءتنى صحفية تعمل فى إحدى الصحف المستقلة لإجراء حوار معى عن هؤلاء الذين كانوا يروجون للتطبيع مع إسرائيل ويتظاهرون الآن بتأييد المقاومة الفلسطينية فى مواجهة حرب الإبادة الصهيونية بادرتنى بالقول «أريد أن أعرف أين كان هؤلاء عندما كان يناضل الفلسطينيون من أجل حقوقهم الوطنية المشروعة بينما كان هؤلاء يرفعون أعلام التطبيع ويتبادلون الزيارات مع الإسرائيليين ويستقدمون الوفود الإسرائيلية كسياح وكخبراء فى الزراعة بل ولا يستنكفون مشاركة أعضاء السفارة الإسرائيلية فى مصر فى احتفالهم بيوم ١٥ مايو الذى يعتبرونه عيد استقلالهم وهو فى الواقع أسود يوم فى التاريخ العربى يوم اغتصاب فلسطين وتسليمها للصهاينة، تحت مظلة كامب ديفيد والصلح مع العدو الصهيونى قام الإسرائيليون على مدى عشرين عاماً بمسح المجتمع المصرى من أسوان إلى مرسى مطروح وتسللوا إلى كل الأماكن والمواقع الهامة والحساسة فى كل قرية ومحافظة وميناء وديرومدرسة ومستشفى فى شمال مصر وجنوبها وانتهكوا خصوصياتنا وسيروا أغوار خفايانا وكوامن أسرارنا الحياتية وفى اللحظة المناسبة لهم هددونا بضرب السد العالى، قلت لها ولكن المظاهرات التى شارك فيها الآلاف من شباب مصر وأطفالها ونسائها أكدت بما لا يقبل الجدل أن مصر الحقيقية ترفض الوجود الصهيونى وتدرك بفطرتها وبتاريخ شهدائها أنه لا سلام ولا استسلام لكل أشكال المساومة والتواطؤ والخداع وإذا كان هناك فئة ضالة قد انساقت خلف الأوهام فإن

مصر بتراثها الوطنى وضميرها القومى ووعى طلائعها المستنيرة والملتزمة قد اكتسحت هؤلاء المتنطعون كما كشفتهم وقاطعتهم منذ البداية ودليل ذلك موقف النقابات المهنية ونوادى أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الذين قاطعوا التطبيع وجرموا كل من تسول له نفسه أو مصالحه الأنانية زيارة إسرائيل أو إقامة علاقات معها.

واصلت الصحفية حديثها بانفعال قائلة: لماذا يقول هؤلاء المطبعون والمروجون للصلح مع العدو الصهيونى بعد أن انكشفت الأستار وزال الوهم؟ ماذا يقول الوزراء الذين كرسوا جهود وزاراتهم لخدمة الإسرائيليين وأصبحت مكاتبهم مزاراً دائماً للوفود الصهيونية؟ ماذا يقول الكتاب والصحفيين الذين زاروا إسرائيل عدة مرات وأصبحوا أبواقاً للترويج للصلح مع العدو الصهيونى وتطبيع العلاقات معه؟ ولماذا يظل الصحفيون الذين كشفوا بالوثائق والأدلة الدافعة أهوال التخريب الذى ألحقه الإسرائيليون بالزراعة المصرية وحولوا حقولنا الخصبة إلى أراضى بور بتقاويهم المسمومة ألا يدعونا ذلك إلى إعادة النظر فى مفهوم التطبيع ذاته؟ نتساءل ثم تجيب: إننى أرى أن التطبيع يعنى فى الأساس عودة العلاقات إلى وضعها الطبيعى مع الدول التى تربطنا بها مصالح وعلاقات تاريخية، أما العدو الصهيونى الذى يهدد وجودنا ذاته وليس مصالحنا وأمننا القومى فحسب هل يمكن إقامة علاقات طبيعية معه؟ إن التطبيع مع إسرائيل يعنى فى جوهرة عودة العلاقات إلى وضعها الطبيعى أى العداء والخصومة التاريخية والآنية والمستقبلية مع هؤلاء الذين جاءوا من الدول الأوروبية كى يغتصبوا أراضينا وينتهكوا حقوقنا ويشردوا أهلنا فى فلسطين وبدلاً من أن يحلوا مشكلتهم مع أوطانهم الأوروبية التى اضطهدتهم ولفظتهم وصدرت أزمتهم إلى العالم العربى دون ذنب جنيناه جاءوا إلينا كغزاة

وسفاحين، نتساءل مرة أخرى: هل نحن مسئولون عن المشكلة اليهودية إنها مشكلة أوروبية ويجب أن يحلها هؤلاء الذين خلقوها.. صمتت الصحفية قليلاً ثم استطردت: حتى المطربين أصبحوا يجيدون الأغانى ويتغزلون فى الشعب الفلسطينى وبطولاته أين كانوا فى السنوات الماضية عندما كانوا يصدعون رؤوسنا بالأغانى التافهة والهابطة؟ هنا تدخلت كى أهدئ من انفعالها وأوضح لها بعض الأمور قلت لها: باعتبارك دارسة للتاريخ سوف تفهمين جيداً ما سوف أقوله لك.. يخبرنا التاريخ العربى وعلى الأخص المصرى والفلسطينى فى فترات المد الثورى والوطنى يصبح جميع الناس وطنيين حتى الراقصات وتجار المخدرات وفى فترات الجذر والتراجع والاستسلام لسطوة القوى الأجنبية يظهر الوطنيون الحقيقيون المستوعبون لتاريخ أوطانهم يقبضون على ثوابتهم الوطنية كالقابضين على الجمر يواصلون مسيرة النضال بدأب وصلابة لا يحنون رؤوسهم ولا ترهبهم الضغوط والسجون والمعتقلات مهما اشتدت وطأتها ولا تبهرهم الإغراءات من مناصب وأموال مهما سطع بريقها الزائف.. هذه قصتنا قصة الشعب المصرى مع التطبيع ولكن أود أن ألفت نظرك إلى أن تصاعد النضال الفلسطينى وبطولات الاستشهاديين فى مواجهة المغتصب الصهيونى هى صاحبة الفضل الأول والأساسى فى كشف الاستار المضللة التى نسجتها الصهيونية منذ أوائل القرن العشرين وتحالف معها المتواطئون والمستسلمون من الحكومات العربية، وجماعات المصالح، لقد انكشفت حقيقة الصهيونية كحركة عنصرية استعمارية، لقد أصبح القاضى والدانى من بلجيكا شمالاً إلى جنوب أفريقيا جنوباً والصين شرقاً والأرجنتين غرباً أصبح الجميع فى جميع أنحاء الأرض يدركون حقيقة الوطن الفلسطينى المغتصب وحقيقة الصهيونية وزبانيتها من العملاء الخونة، هدأت الصحفية ثم قالت: ولكن لا يزال الطريق أمامنا طويلاً وشاقاً حتى يسترد الشعب

الفلسطينى سيادته على كامل ترابه الوطنى وحتى تتطهر الأرض العربية من هؤلاء المغتصبين.. قلت لها: هذه ضريبة الانتماء إلى الأوطان وهذا هو الفرق بين الوطنيين الحقيقيين وبين هؤلاء الذين يسايرون الموجة والذين أسميهم خدم المراحل المنحطة فى تاريخ الوطن.

صوت الجامعة – ١ مايو ٢٠٠٢

obeikan.com

8 الانتماء للأوطان

أقامت أسرة النديم بكلية الإعلام احتفالية للتضامن مع الشعب الفلسطينى شارك فيها حشد جميل من جميع الأجيال التى تربت فى أحضان اتفاقية السلام مع إسرائيل ولكنهم استطاعوا بحسهم الوطنى الصادق أن ينفضوا ركام الدعاية الزائفة التى روجت لها أبواق السلطة خلال عشرين عاماً عن إمكانية الصلح والتطبيع مع لصوص الأوطان الذين لفظتهم أوطانهم الأوروبية فجاءوا إلى فلسطين ومارسوا فيها كل ألوان الإبادة والتشريد لأهلها وأصحابها الشرعيين تحت شعار ديانتهم اليهودية ووصاياها العشر التى من بينها «لا تقتل ولا تسرق»، جاء هؤلاء الشباب الذين امتدت كراهيتهم لإسرائيل كى تلتحم بكراهية أجيال سابقة عاشت وعاصرت الوجه العربى المقاوم للصهيونية وتسطع فى ذاكرتها صورة أطفال مدرسة بحر البقر والأسرى المصريين الذين أجبرتهم إسرائيل على حفر قبورهم ١٥٠ ألف شهيد مصرى قتلتهم الصهيونية فى أربع حروب، جاء هؤلاء الشباب كى يؤكدوا ولائهم وانتمائهم للانتفاضة الفلسطينية التى أسقطت الأوهام بشأن جماعات السلام وجماعات التطبيع الذين لم تتوفر لديهم الشجاعة لعقد مؤتمر يراجعون فيه أوهامهم ويقدمون اعتذارهم للشهداء وللصامدين فى فلسطين الساعين بتضحياتهم الفذة لاستعادة الكرامة والسيادة الوطنية للأرض العربية.

وقد ضمت الاحتفالية مجموعة بارزة من رموز الفكر والثقافة والسياسة والفن من المصريين والفلسطينيين وكان من بينهم حمدين صباحى عضو مجلس الشعب

والذى تخرج فى قسم الصحافة عام ١٩٧٧ وكان ولا يزال رمزاً ساطعاً لجيل السبعينيات بوعيه الوطنى الأصيل ونضاله واستمراريته منذ أن وقف فى مواجهة السادات وهو طالب صغير كى يؤكد له أنه ينتمى إلى الجيل الذى استلهم الروح الوطنية والحس القومى الأصيل للزعيم الراحل جمال عبد الناصر وأنه مع أبناء جيله أمناء على هذه الرسالة وسوف يواصلونها مهما اشتدت وطأة الظروف. وقد صدق فى وعده إذ قاوم ببسالة كافة أشكال القهر والاعتقال والتشريد وظل صلباً قابضاً على الجمر جمر انحيازه لقضايا الوطن وقضايا الفقراء. كانت المفارقة حادة بين هذا النموذج المضئ وبين نموذج آخر ينتمى لجيل التسعينيات ويمثل لحسن الحظ قلة ضئيلة معزولة فى صوامعها الفردية وأحلام الالتحاق بالغرب والانبهار بمظاهره الخادعة تلك النماذج التى يلهث بعضها خلف أوهام الهجرة أو خلف المكاسب الصغيرة التى قد تمنحهم قدراً من الجاه أو النفوذ أو المال ويعتقدون أن الاهتمام بالقضايا العامة ضرباً من المخاطرة التى قد تهدد مكانتهم العلمية الناشئة أو قد تنتزع من داخلهم الطمأنينة الخادعة التى تغلف حياتهم ويتجاهلون عن عمد أن للوطن ضريبة عليهم أن يدفعوها هذا الوطن الذى أعطاهم الكثير منحهم شرف الانتماء له ورعاهم صغاراً واحتضنهم كباراً ولولا هذه الرعاية ما تمكنوا من السفر للخارج والوقوف انداداً لأولئك الأمريكيين والأوروبيين ولولا العلم الذى تلقوه فى مدارس وجامعات الوطن ولولا الرعاية التى أسبغها عليهم أساتذتهم لولا المحبة التى منحها لهم ذويهم بلا شروط لولا كل هذا لكانوا كائنات هشة تائهة بلا تاريخ ولا مستقبل.

تمنيت لو شارك هذا النموذج فى الاحتفالية واستمع إلى كلمات المتحدثين الذين مثلوا كافة التيارات الفكرية والسياسية الإسلامية والليبرالية والماركسية والناصرية

وتحدثوا بقلب وعقل وصبر رجل واحد عن القضية المركزية قضية فلسطين التى كانت على امتداد قرن كامل ولا تزال تمثل قلب وجوهر القضية الوطنية المصرية ولم تحل اختلافاتهم الفكرية والأيديولوجية دون التوحد والالتفاف حول القضية التى تمس صميم الأمن القومى المصرى حيث أكد جميعهم أن المعركة الدائرة حالياً فى فلسطين هى معركة تتعلق بمستقبل مصر بنفس القدر الذى سوف يتحدد به مستقبل القضية الفلسطينية وأن أى تشويه أو تهوين لهذه الحقيقة هو تشويه للرؤية الاستراتيجية لمستقبل مصر فلا سلام ولا تنمية فى ظل التهديد النووى والعسكرى الإسرائيلى تمنيت لو أدرك هذا النموذج أن النقاش والجدل والاختلاف فى الرأى هو سمة الواثقين بأنفسهم القادرين على التمييز بين ما هو ذاتياً يخصهم وما هو موضوعياً يخص قضايا الفكر والسياسة والثقافة فلا يخلطون بين ذواتهم الجاحدة وعلاقاتهم الإنسانية بمن تبنوهم ورعوهم وبين رحابة الجدل اتفاقاً واختلافاً، الجدل الذى يتجاوز حدود الذات الضيقة وينطلق باحثاً عن كل ما هو صواب لدى الآخرين يستلهمه ويتأمله وما هو خطأ فى رأيه فيصححه ويعيد النظر فيه بلا عقد أو انكفاء على الذات أو التفكير فى انتقام صغير أحمق أو انبهار بما يسمى الحداثة وما بعد الحداثة دون تأصيل أو تأمل واع لحقيقة ما يميز مجتمعنا ومسيرته التاريخية واختلافه الجذرى عن مسيرة المجتمعات الغربية وملابسات تطورها ونزعتها الاستعلائية ومحاولاتها الدؤوبة للتسلط على عقولنا ووجداننا وانتزاعنا من مجتمعاتنا وإلحاقنا بهم كمواطنين من الدرجة الثانية. لم أمنع نفسى من المقارنة بين هذا النموذج الذى يتدثر بثوب الليبرالية ويرى أن أنصار التطبيع مجرد متطرفين فى تأييدهم لإسرائيل وليسوا خارجين عن الخط الوطنى وبين حمدين صباحى ذلك الوطنى الأصيل الذى كان يسارع فور خروجه من السجن للالتحام بأهله وقضايا وطنه مقتنعاً أنه لن يكبر ولن يحقق طموحاته الشخصية إلا بهم ومعهم ومن خلال

انغماسه الصادق فى همومهم وأزماتهم وقد كبر بالفعل وسط الجموع التى وثقت به وحملته إلى مجلس الشعب نائباً عنهم ولم يمنعه أو يشغله نضاله الوطنى عن أن يحيا حياته الطبيعية كشاب أحب زميلة له بالجامعة وتزوجها وكونا معاً أسرة رائعة وانجبوا أطفالاً غرسوا فيهم حب الوطن والوعى الصحيح بقضاياه وقدموهم للوطن هدية كى يواصلوا نفس المسيرة ويبدعوا ويضيفوا كما أضاف حمدين وأبدع ولا يزال.

الأهرام – ٢٨ مايو ٢٠٠٢

obeikan.com

9 نسف الأباطيل !

أشار الصحفى الإسرائيلى يورى شمعون فى جريدة معاريف إلى أن الجامعة العبرية قد توصلت عبر الأبحاث فى علم الجينات إلى وجود تشابه جينى بين اليهود وسكان منطقة شمال العراق، وفى أبحاث سابقة تم اكتشاف وجود تشابه جينى بين اليهود والعرب خاصة الفلسطينيين من سكان فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ والتى يطلق عليها الآن دولة إسرائيل، ويعرب الكاتب عن اعتقاده أن معظم الفلسطينيين هم أبناء اليهود أنفسهم الذين لم يهاجروا من فلسطين وان فلسطين لم تكن فى يوم من الأيام خاوية من السكان. وأتفق مع الصحفى الإسرائيلى فى الجزء الأخير وهو أن فلسطين لم تكن يوماً من الأيام خاوية من السكان كما روجت افتراءات الحركة الصهيونية وزعمت أن فلسطين أرض بلا شعب وستكون وطناً لشعب بلا أرض، ولكن الجزء الذى أخفاه هذا الصحفى الإسرائيلى عن عمد هو أن سكان فلسطين لم يكونوا كلهم يهوداً، بل شكل المسلمون والمسيحيون الأغلبية، وشكل اليهود العرب أقلية وأن هذا التقارب الجينى بين اليهود والفلسطينيين يقتصر فقط على اليهود العرب الذين عاشوا على الأرض العربية فى فلسطين واستمتعوا عبر قرون بمناخ التسامح الدينى فى ظل الحكم العربى الإسلامى، وأبرز مثال لهم مجموعة ناطورا كارتا اليهود العرب الذين يعارضون وجود دولة إسرائيل ولم يعان اليهود العرب الاضطهاد والتشريد مثلما حدث لهم على يد الحكومات الأوروبية المسيحية التى لفظتهم وطاردتهم وجعلتهم يعيشون فى مناطق معزولة عرفت باسم الجيتو

اليهودى وعندما ضاقت بهم أوروبا وأصبحوا يشكلون ما يعرف بالمشكلة اليهودية قامت بترحيلهم وألقت بأثقالهم على الأرض العربية فى فلسطين البريئة منهم ومن تبعة أضطهادهم.

ويطالب هذا الصحفى الإسرائيلى بإجراء بحث جينى للسكان العرب فى مدن طبريا وصفد وعكا والناصرة وحيفا والرملة وعسقلان والخليل والقدس لتظهر الحقائق العلمية التى تؤكد مقولاته، وأنا أتفق مع ما يطرحه هذا الصحفى الإسرائيلى ولكن بالمنطق المعكوس، وهو أن يشمل البحث الجينى اليهود القادمين من أوروبا وألا يقتصر على العرب لكى تكشف لنا الحقائق العلمية الجذور الجينية للملايين الثلاثة ونصف المليون يهودى الذين جاءوا من بولندا وروسيا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وأثيوبيا، وتنسف لنا الاحبولة والخرافة التى استند إليها الصهاينة فى تأسيس دولتهم المعتصبة. عندئذ سوف يظهر للعالم أن جميع هؤلاء اليهود النازحين من أوروبا وأفريقيا ويحملون جينات تنتمى للأجناس النوردية والآرية والزنجية وسائر الأجناس التى لا تنتمى للأرض العربية موطن الحاميين والساميين، وسوف يتأكد العالم من أن هؤلاء اليهود النازحين من أوروبا لا ينتمون للسامية التى يبتزون بها أوروبا خصوصاً ألمانيا حتى اليوم، وحينئذ سيتولى العلم نسف الأباطيل السياسية التى روجتها الصهيونية عبر قرن من الزمان.

الأهرام – ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٢

10 مصر وفلسطين

كانت أذكى بنات جيلها تربت فى عائلة أرستقراطية تميزت بالعلم والثراء وكان والدها من أشهر المحامين المصريين وأكفأهم تزوج من ابنة أستاذه كانت فتاة رقيقة مرهفة ذات ميول فنية وثقافية موسوعية أهتمت بتربية أبنائها وفقاً للصيغة العائلية المتبعة، وسار الأولاد على الدرب المرسوم لهم وتخرجوا أطباء ومهندسين والتحقت الأبنة بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب حيث تفتحت حواسها وبصيرتها على إجابات لأسئلة كانت تشغل ذهنها فى إطار السياج الطبقى الذى كان يحاصرها والمناخ العائلى المتزمت الذى نشأت فيه، ارتبطت عاطفياً بزميلها الشاعر الفلسطينى درة الدفعة وتاجها عندما فاتحت أمها قوبلت برفض قاس ولكن إصرار الفتاة كان أقوى تركت أسرتها وتزوجت الشاعر. قررت الأم أن تنشر نعيا لابنتها فى الصحف لولا تدخل حكماء الأسرة.. عاشت الفتاة تقلبات الظروف القاسية مع زوجها الفلسطينى المنتمى لأعرق عائلات الوطن الفلسطينى والتى تضم جميع ألوان الطيف من حيث الثراء والفقر فى المال والعلم والفن، والنضال السياسى والاجتماعى وينتشر أبنائها فى جميع أنحاء فلسطين إلا أنهم خرجوا جميعاً من قرية دير غسانة بالضفة الغربية. بعد حصولها على الدكتوراه من أمريكا حيث اختصرت المنحة الدراسية من أربع سنوات إلى عامين فقط، حاولت الإنجاب ولكن فشل حملها الأول وحاولت مرة أخرى وأنجبت تميم وفى شهره الثالث زار السادات القدس وكان نصيب الشاعر الفلسطينى الاعتقال فى قسم الخليفة وطرده خارج

البلاد، كانت المجر لمقر المختار للأسرة الصغيرة، لم تحتمل رضوى قسوة الظروف المتوالية أصيبت بالسرطان، قاومت ببسالة وظلت طوال ١٧ عاماً تسافر مرتين لزوجها المقيم فى بودابست وبصحبتها الطفل تميم. تحملت عذابات الفراق ومسئولية رعاية طفل ينتمى إلى قضية ووطن يتحالف ضدهم كل مرتزقة العالم وسماسرة الأوطان صمدت رضوى فى مواجهة المرض والقهر السياسى ونفى الزوج واصلت السعى فوق دروب ملغومة ومزروعة بالأشواك حتى كبر الطفل وانتمى إلى قضيته أكثر من جميع الأبناء المنحدرين من أمهات فلسطينيات وورث عن أبيه موهبة الشعر وعن أمه البحث العلمى فجمع بين فرعين يصعب الجمع بينهما العلوم السياسية والشعر وحصل على الدكتوراة من أمريكا وعمره لا يزيد عن ٢٦ عاماً توج بها رحلة طويلة وشاقة عاشها الأب فى المنفى وعاشتها الأم داخل الوطن فوق سطح من الجمر الملتهب فقد أخرجت المحنة أفضل قدراتها الإبداعية وكسبت مصر كاتبة وأستاذة ملتزمة مرموقة قدمت لفلسطين أروع هدية بشرية هى الشاعر الدكتور تميم البرغوثى.

صوت الجامعة - ٧ ديسمبر ٢٠٠٤

11 أين ضمائر الفلاسفة

إذا كانت خبرة الاعتقال والإبادة فى معسكر أوشفيتز بألمانيا النازية تعد من أكثر التجارب التي فى ذاكرة اليهود والتى تركت بصماتها على العقلية اليهودية والتى عبر عنها اودرونو أبرز فلاسفة مدرسة فرانكفورت النقدية بقوله المأثور: إنه لا شعر ولا غناء بعد أوشفيتز وعبر عنها هوركامير زعيم فلاسفة فرانكفورت (أن ظلم الماضى لن ينتهى أبدا حيث لم تلق معاناة أجيال الماضى أى تعويض) ثم يحاول هوركايمر أن يجعل هذه الواقعة التاريخية واقعة فلسفية وإنسانية عامة حينما يؤكد أن البشر الحقيقيين هم الشهداء الذين ذهبوا احتراقاً فى أفران الجحيم، حيث الإهانة والمعاناة إذ اعتبر شهداء معسكرات الاعتقال هم الرموز الحقيقية لإنسانية تناضل من أجل البقاء وتصبح مهمة العلماء والمفكرين أن يترجموا ما حدث لهم إلى لغة ينبغى أن تسمع حتى لو كان ذلك من خلال أصواتهم الضعيفة التى أسكنها الطاغية هتلر.

ترى ماذا يقول هؤلاء الفلاسفة لو كانوا قد عاصروا مذابح الإبادة الجماعية للشعب الفلسطينى واغتصاب أرضهم وتدمير منازلهم وإجبارهم على الفناء أو الهجرة من جانب الحركة الصهيونية وأداتها إسرائيل طوال نصف قرن ويزيد؟ وهل كان يسعدهم ويرضى ضمائرهم ان يتم حل المشكلة اليهودية فى أوروبا على حساب شعب آخر لا ذنب له سوى أنه يشغل موقعاً استراتيجياً فى قلب الوطن العربى ويحوى بين جنباته أقدم المقدسات الدينية التى استغلت أسوأ استغلال لتبرير قيام

دولة مصطنعة على حساب الحقوق التاريخية والقانونية المشروعة لشعب يملك تراثاً وحضارة وأرضاً ينبض كل شريان فيها بالرفض والمقاومة البطولية لهؤلاء المغتصبين الأجانب الذين أتوا من كل بقاع العالم لتدمير هذا التراث الحضارى الراسخ الذى أقامه الفلسطينيون عبر مئات الأجيال فوق الأرض المقدسة؟ إذا كان ضحايا أوشفيتز هم الشهداء الحقيقيين فى نظر هؤلاء الفلاسفة فماذا عن شهداء هؤلاء الضحايا فى فلسطين؟ أى عار وأى ذل ومهانة تكلل هامة هؤلاء المفكرين والفلاسفة الذين يعاصرون مشاهد الاستشهاد ومواكب الشهداء من الفلسطينيين أطفالاً ونساء وشيوخاً وشباناً من أجل حقهم المشروع فى استعادة وطنهم الذى تتواطأ ضده جميع الأنظمة والمنظمات الدولية وتتجاهله عن عمد ضمائر الحكام وفلاسفة العصر ومفكروه، أين الأصوات الحرة التى تتشدق بحقوق الإنسان؟ أين مواكب الاحتجاج التى كان يقودها الفلاسفة والمفكرون فى قلب فرنسا دفاعاً عن حق الشعب الجزائرى فى أن يكون له وطن مستقل عن فرنسا؟ أين المظاهرات العارمة ضد نظام التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا والتى ملأت ساحات العالم الغربى والعربى والافريقى والأسيوى سنوات طويلة؟.. أين ضمير العالم؟

الأهرام – مايو ٢٠٠٥

12 القضية الفلسطينية ومأثورة بونابرت

أتذكر فى هذه الأيام الرمادية ما دار فى حديثى مع الرئيس الجزائرى الراحل هوارى بومدين فى ختام زيارتى للجزائر فى ديسمبر ١٩٦٧ والتى قمت بها بناء على دعوته لى لجمع المادة العلمية من الوثائق وإعداد صحيفة المجاهد لسان حال الثورة الجزائرية وسائر النشرات التى أصدرتها جبهة التحرير الوطنى الجزائرية أثناء الثورة علاوة على لقاء المجاهدين الذين شاركوا فى صنع إعلام الثورة، وذلك فى إطار إعدادى لرسالة الماجستير عن صحافة الثورة الجزائرية، لقد أبديت له دهشتى من الحقيقة التى فوجئت بها عندما وجدت أغلب المجاهدين يعيشون فى مبنى خاص لهم يعلوه يافطة كتب عليها «المجاهدون القدامى» بينما كان يتولى المناصب القيادية فى إدارة شئون الجزائر أشخاص لم أسمع بهم من قبل وكان أغلبهم يعيشون خارج الجزائر أثناء الثورة وعندما انتصرت الثورة بدماء أكثر من مليون شهيد جاء هؤلاء الوافدين كى يجنوا ثمارها ابتسم الرئيس بومدين وقال بسخرية لا تخلو من المرارة «هل تذكرين مأثورة بونابرت الخالدة لقد قال إن الثورة يخطط لها الأذكياء وينفذها النبلاء ويجنى ثمارها الانتهازيون».

ما أصدق هذه المقولة التى أستعيدها دوماً بروح لا تخلو من الشجن والأسى خصوصاً وأنا أتابع إبداع الاستشهاديين الفلسطينيين وبهاء تضحيتهم ونبل وجلاء صمود زوجاتهم وأمهاتهم وأطفالهم، وعندما أتأمل المشهد الفلسطينى الراهن حيث أسفرت الانتخابات الفلسطينية التى تميزت بالنزاهة والشفافية ولم تشهد أى

نوع من الانتهاكات التى حفلت بها الانتخابات النيابية فى مصر من أعمال البلطجة والرشاوى الفجة علاوة على التقاعس الأمنى ووقائع التزوير لقد أسفرت هذه الانتخابات عن فوز منظمة حماس وتراجع فتح رغم تاريخها الوطنى السابق على اتفاق أوسلو ١٩٩٣، لقد أعطى الناخب الفلسطينى درساً لا ينسى لرموز فتح الذين مزقوا منظمتهم بالتشاؤم والفساد والإثراء غير المشروع على حساب الشهداء وسكان المخيمات الصامدين ونالت حماس ثقة الشعب الفلسطينى فى الداخل بمصداقيتها وارتباطها العضوى بالهموم الحقيقية والحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطينى من خلال مئات الشهداء الذين قدموهم قرباناً من أجل تحرير الوطن الفلسطينى واستعادته حراً شامخاً مجللاً بالكرامة.. وهكذا يكون موقف الشعوب الواعية المنتمية لوطنها وقضاياه المشروعة.

صوت الجامعة - ٦ فبراير٢٠٠٦م

13 كابوس الجامعة العبرية في ميدان التحرير

التقيت خلال زيارتى لدمشق فى الشهر الماضى بأحد طلابى الفلسطينيين القدامى وكان قادماً من الضفة الغربية وكان اللقاء فى بيت مناضل سورى من أهالى الجولان وقد قضى ثلاثة عشر عاما فى أحد السجون الإسرائيلية ودارت الحوارات حول المخططات الصهيونية لتهويد العالم العربى بعد توقيع اتفاقيات الصلح مع مصر والأردن وموريتانيا والتى أتاحت لإسرائيل فرصا غير مسبوقة لاختراق عواصم هذه الدول والتغلغل داخل مدنها وقراها والتسلل إلى منتديات مثقفيها ومؤسساتها العلمية واستقطاب رجال أعمالها وسماسرتها وعقد العديد من الصفقات مع حكوماتها.

قال المناضل الجولانى (ولكن لا يزال وسيظل الشارع العربى ببسطائه ومثقفيه معاديا لإسرائيل ومناهضاً لمخططاتها الخبيثة) واستشهد بوجود مئات اللجان الشعبية المنتشرة فى أنحاء الوطن العربى والمناهضة للوجود الصهيونى عدا ملايين البيوت العربية التى استشهد أبناؤها بأيدى الصهاينة فى مصر وسوريا والعراق ولبنان وفلسطين والأردن واليمن والسودان.

قال الصديق الفلسطينى (إننى أخشى على مصر لأنها تحتل بؤرة العقل الصهيونى فهم يدركون وزنها الحقيقى فى العالم العربى ولن أنسى مقولة هرتزل لليهود المصريين أثناء زيارته لمصر عام ١٩٠٤ عندما أكد لهم أن تحقيق الحلم الصهيونى فى فلسطين يبدأ من هنا من مصر وإذا قدر له أن ينتهى فسوف تبدأ نهايته

هنا أيضا فى مصر كما أذكر جيدا تصريح جولدا مائير بعد توقيع اتفاقية الصلح مع مصر عندما قالت (إننا نتطلع إلى أن نحقق مع مصر بالسلام ما فشلنا أن نحققا بالحرب والمعنى الكامن فى كلامها يؤكد أن الهدف تركيع مصر من خلال اتفاقية السلام أى كسر شوكتها وإدماجها فى المشروع الصهيونى الذى يستهدف العالم العربى كله).

قلت له (إننا نعلم ذلك جيدا ولكن مـ هو الجديد فى المخطط الصهيونى بالنسبة لمصر) أجاب (لقد سبقتينى بهذا السؤال إننى سمعت أخبارًا أن الجامعة العبرية تخطط لفتح فرع لها فى ميدان التحرير) قلت له (ماذا تقصد بميدان التحرير الذى لا يوجد به مكان يتسع للجامعة العبرية أو لغيرها) قال (إن الجامعة الأمريكية سوف تبيع مقرها القديم وتنتقل إلى مبنى جديد فى أحد الأحياء الجديدة فى مصر وتخطط الجامعة العبرية لشراء هذا المبنى).

أحسست بلسعة أفعى تلتف حول رقبتى وانتفضت صائحة بصوت مختنق (مستحيل أن يحدث هذا) وللأسف جاءت الأخبار الأخيرة كى تؤكد صحة ما قاله الصديق الفلسطينى فقد نشرت صحيفة الجمهورية فى صدر صفحتها الأولى فى الأسبوع الماضى خبراً يقول (هل تشترى إسرائيل مبنى الجامعة الأمريكية بالتحرير) ويشير الخبر إلى (أن مجلس أمناء الجامعة الأمريكية قد كلف بعض أساتذة إدارة الأعمال والهندسة لإعداد مناقصة لتحرير قيمة الشراء دون النظر إلى جنسية أو ديانة المشترى).

لقد توالت إلى ذاكرتى المشاهد التاريخية التى شهدتها مصر منذ نهاية القرن التاسع عشر وبالتحديد منذ عام ١٨٩٦ حينما وفد إلى مصر جوزيف ماركو باروخ حيث شرع على الفور فى تأسيس أول جمعية صهيونية فى القاهرة أطلق عليها جمعية

باركوخيا الصهيونية وقد نشطت هذه الجمعية فى الدعوة للحركة الصهيونية ونجحت فى إنشاء عدة فروع لها فى بعض المدن المصرية مثل الإسكندرية وبورسعيد وطنطا والمنصورة وسعت إلى جعل مصر مركز إشعاع للدعاية الصهيونية بالنسبة لليهود الشرقيين ثم جاءت زيارة هرتزل ١٩٠٤ لبحث مشروع الاستيطان اليهودى مع السلطات المصرية حيث احتفت به الأسر الرأسمالية اليهودية وكان ذلك إيذانا ببدء النشاط الصهيونى الفعلى فى مصر والذى تجلى فى تأسيس جمعية بن صهيون ابن يهود الإسكندرية عام ١٩٠٨ والتى أعلنت تبنيها لبرنامج مؤتمر بال الصهيونى عام ١٨٩٧ وبعد صدور وعد بلفور ١٩١٧ أصبحت الجمعية الصهيونية بالإسكندرية تتلقى التعليمات من المنظمة الصهيونية العالمية مباشرة ولم يعد دورها مقتصرا على الأنشطة الدعائية بل شاركت فى تسهيل عمليات الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وقد اتسع النشاط الصهيونى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بدرجة ملحوظة فتشكلت منظمات الشيعة الصهيونية الطلائعية ورابطة نوادى المكابى. وفى عام ١٩١٨ قام ليون كاسترو بتأسيس أول فرع للمنظمة الصهيونية فى مصر وكان هذا الفرع صورة مصغرة للمنظمة الصهيونية من حيث النشاط الدعائى الاقتصادى والفكرى. كما كان فرع الكيرن كايميث (الصندوق القومى لليهود) وسيلة أخرى لجمع التبرعات من اليهود المصريين لشراء أراضى فلسطين.

وقد انتعشت الدعاية الصهيونية فى مصر إبان الحكم الفاشى فى إيطاليا وألمانيا فى الثلاثينيات من القرن العشرين. وتحت ستار مقاومة الفاشية تشكلت الهيئات اليهودية ذات الولاء الصهيونى وقامت بدور خطير فى الترويج للفكر الصهيونى من خلال الادعاء بمقاومة الفاشية ونجحت فى اجتذاب اهتمام بعض كبار المثقفين المصريين مثل طه حسين ومحمد حسين هيكل وغيرهما حيث منحوها تأييدهم

وتشجيعهم سواء عن غفلة أو إدراك بحقيقة الدور المزدوج الذى كانت تقوم به (رابطة مقاومة الهتلرية) التى كونها يهود مصر فى ذلك الحين.

وقد شهدت مصر صدور مجموعة من الصحف الصهيونية التى تواكبت مع أهداف الحركة الصهيونية ومارست أدوارها بحذر ودهاء، مستهدفة توعية واستقطاب اليهود المصريين لصالح الحركة الصهيونية من ناحية والعمل على كسب تأييد الرأى العام المصرى بكافة الوسائل والأساليب من ناحية أخرى. واعتمدت الدعاية الصهيونية فى بداية القرن على الصحافة المصرية خصوصا بعد عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ وظل الأمر على هذا النحو حتى بعد صدور وعد بلفوز ١٩١٧ ثم صدرت صحيفة إسرائيل ١٩٢٠ باعتبارها أول صوت إعلامى صهيونى باللغة العربية يصدر فى مصر وذلك بعد أن استكملت الحركة الصهيونية مقومات وجودها داخل المجتمع المصرى والتى تمثلت فى وجود تنظيمات ونواد ثقافية ورياضية وقاعدة عريضة من المساندة المصرية واليهودية. وعندما أقبلت الأربعينيات وأصبح تحقيق الوطن القومى اليهودى فى فلسطين قاب قوسين أو ادنى وانكشف تماما الخطر الصهيونى أمام أعين الرأى العام العربى والمصرى من خلال الصدامات الدامية بين الحركة الوطنية الفلسطينية فى مواجهة الحركة الصهيونية المدعومة بالمساندة البريطانية حينئذ توقف الصهاينة عن إصدار صحف صهيونية جديدة ولجأوا إلى أسلوب دعائى صهيونى جديد تمثل فى إصدار مجلة مصرية ذات طابع ثقافى ضمت نخبة من كبار المثقفين المصريين بتمويل يهودى صهيونى تلك الصحيفة هى الكاتب المصرى التى صدرت فى أكتوبر ١٩٤٥ وكان يرأس تحريرها طه حسين وتولت تمويلها أسرة هرارى اليهودى المصرية وكان اهتمامها بالقضية الفلسطينية هامشيا فى الوقت الذى امتلأت فيه الصحافة المصرية

بتغطية الصدامات الدامية التى بلغت ذروتها فى ذلك الوقت بين الفلسطينيين والصهاينة ولا شك أن موقف مجلة الكاتب المصرى لا يمكن إرجاعه أو تفسيره بالجهل بالقضية الفلسطينية لأنها كانت آنذاك فى ذروة تصاعدها فقد أسهمت فى الدعاية غير المباشرة للأهداف الصهيونية من خلال تجاهلها المتعمد ومعالجتها السطحية للصراع الصهيونى الفلسطينى الذى بلغ فى ذلك الوقت (الأربعينيات) ذروة اشتعاله.

لقد تلاقت فى مصر مختلف الاتجاهات الدينية والقومية فى الاهتمام بفلسطين وكانت مصر تعيش فى ذلك الوقت ملحمة صراع وطنى ديمقراطى طرفها الأساسى الحركة الوطنية المصرية بقيادة الوفد فى مواجهة السراى والاحتلال البريطانى وحلفائهم من أحزاب الأقلية. وكان الإنجليز يعارضون أى اقتراب مصرى من الشعب الفلسطينى والعربى. وقد نجحوا فى تنفيذ مخططاتهم من خلال الحكومات المصرية الموالية للاحتلال البريطانى ونذكر هنا موقف حكومة محمد محمود باشا ١٩٢٩ ضد ثورة الشعب الفلسطينى وتهديدها للفلسطينيين المقيمين بمصر بالطرد واتهامهم بإثارة الفتنة الطائفية كذلك اشتراك حكومة اسماعيل صدقى فى معرض تل أبيب الذى أقيم فى ربيع ١٩٣٢ متجاهله جميع التحذيرات التى وجهتها إليها الأوساط الوطنية الفلسطينية.

الجامعة العبرية

ويقودنا هذا إلى الحديث عن الجامعة العبرية التى تم افتتاحها فى القدس فى ٢٥ إبريل عام ١٩٢٥ من أبرز الأحداث التى شهدتها فلسطين فى العشرينيات. وكان لهذا الحدث أصداء واسعة شملت الشعب الفلسطينى وسائر الشعوب العربية فى سوريا والعراق ومصر. وتجاوبت الصحف المصرية مع هذا الحدث إلى مدى بعيد

حيث حرصت على إبراز الصلة بين إنشاء هذه الجامعة وفكرة البعث اليهودى.

وترجع فكرة إنشاء الجامعة العبرية إلى عام ١٩٠١ عندما أصدر المؤتمر الصهيونى الخامس قرارا بتأييد الفكرة وفى عام ١٩١٣ قرر المؤتمر الصهيونى الحادى عشر إنشاء الجامعة وبدأ بالفعل فى شراء الأرض ووضع التصميمات ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى حال دون تحقيق ذلك المشروع ولما صدر وعد بلفور ١٩١٧ بعثت الفكرة من جديد وعهد إلى اللجنة الصهيونية التى جاءت إلى فلسطين عام ١٩١٨ بإنشاء الجامعة حيث وضع وايزمان الحجر الأساسى لبنائها فوق جبل الزيتون فى القدس ثم افتتحت رسميا عام ١٩٢٥.

ولقد قادت صحيفة كوكب الشرق حملة صحيفة واسعة النطاق مستهدفة إيقاظ الرأى العام المصرى وتنويره فيما يتعلق بحقيقة الهدف الذى أنشئت من أجله الجامعة العبرية بالقدس باعتبارها ليست وسيلة لنشر العلم والحضارة فى ربوع الشرق كما يدعى منشئوها ولكنها ركيزة علمية لتحقيق الوطن القومى اليهودى فى فلسطين وتتساءل الصحيفة (عن معنى دعوة اللورد بلفور لافتتاح الجامعة العبرية وهو صاحب الوعد الذى يشكو منه أهل فلسطين لأنه سيقضى على كيانهم وهل يتفق هذا مع هيبة العلم وجلاله وهل لمثل هذا تفتتح جامعات العلم فى العالم).

وقد أعلن إضراب شامل فى فلسطين يوم قدوم اللورد بلفور وألقى خليل سكاكينى خطاباً وطنياً من فوق منصة الحرم الشريف بالقدس وعلى الفور اتخذ قرار يدعو اللورد بلفور إلى مغادرة البلاد التى دخلها على غير رغبة أهلها وبلغ إلى المندوب السامى البريطانى وقد اهتمت صحيفة البلاغ بتحليل أسباب احتجاج الفلسطينيين على زيارة بلفور فقالت (إن مقاطعة الفلسطينيين لزيارة بلفور هى ضد التصريح الذى يمثله بلفور وضد كثرة النازحين اليهود إلى فلسطين الذين منحهم

تصريح بلفور جواز المرور) وشبهت هذا الموقف بمقاطعة المصريين ١٩٢٠ للجنة ملنر التى جاءت للمفاوضة على أساس الحماية أما الأهرام ١٩٢٠ للجنة ملنر التى جاءت للمفاوضة على أساس الحماية أما الأهرام فقد وجهت نقدها للعرب قائلة (ان الصهاينة قد استخرجوا من تصريح بلفور أكثر مما فيه كثيراً ولم يستطع العرب أن يستفيدوا من رسائل مكماهون غير ما يشبه تمثيل الروايات لتسلية المتفرجين وليس الذنب ذنب الإنجليز الذين تهمهم مصلحتهم ولا ذنب الصهاينة الذين يطلبون وطنا بل ذنب الذين ناموا عن تصاريف الأمن وأضاعوا كل فرصة سانحة مع أنهم عرفوا أحلام الصهاينة منذ رسمها لهم زعماؤهم).

أما الحدث الأهم الذى أرتبط بافتتاح الجامعة العبرية فهو إيفاد لطفى السيد مدير الجامعة المصرية للاشتراك فى الاحتفال بافتتاح الجامعة وقد أثار اشتراك مصر فى افتتاح هذه الجامعة الصهيونية عاصفة من الاحتجاج من الفلسطينيين عبرت عنها الصحف والقيادات الوطنية فى فلسطين. وقد حاول لطفى السيد استدراك الأمر فقام بزيارة المعاهد الإسلامية وأصدر بياناً رسمياً أعلن فيه الظروف والملابسات الدقيقة التى أحاطت بمهمته فى القدس خصوصاً وأن الدعوة صادرة من معهد علمى من المفروض انعدام صلته بالسياسة كما هو شأن الجامعات العلمية. ولكنه أبدى إرتيابه من المبالغة التى أحيط بها الاحتفال بافتتاح الجامعة العبرية مما ينطوى على الترويج للدعوة الصهيونية خصوصاً عندما نمى إلى علمه أن لغة التدريس بالجامعة هى اللغة العبرية ولذلك امتنع عن إلقاء كلمته فى الاحتفال حتى لا يفهم من ذلك تأييد مصر للعنصر الصهيونى وتفضيله على العنصر العربى فى فلسطين.

والواقع أن الدعوة لحضور احتفالات الجامعة العبرية لم تقتصر على الحكومة

المصرية فحسب بل وجهت دعوة مماثلة إلى الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية آنذاك وكذلك الدكتور أحمد زكى باشا فأهملاها ولم يردا عليها. وقد ذهب فريق من يهود مصر إلى الشيخ بخيت ورجوه باسم العلم أن يحضر ذلك الاحتفال فاعتذر بكبر السن ومشقة السفر فألحوا عليه وعرضوا عليه تسهيلات كبيرة فى السفر. فلما ضاق بهم ذرعا أوضح لهم بأنه لا يستطيع أن يحضر احتفالاً يسيء إلى أهل فلسطين الذين هم فى حالة حداد بسبب هذه الجامعة. وقد استغلت الدوائر الصهيونية حضور لطفى السيد لحفل افتتاح الجامعة العبرية من الناحية الدعائية إلى أبعد مدى وشاركتها فى ذلك وكالات الأنباء الأوروبية والصحف والإذاعات أن رويتر لم تذكر من أسماء من حضروا ذلك الحفل سوى اسم لطفى السيد. وقد علقت صحيفة (بالسثين ويكلى) الصهيونية على ذلك بقولها (أن حضور مندوب مصر هذه الحفلة كان دليلاً على أن مصر العاقلة لا ترى فى الصهيونية رأى أهل فلسطين) وقد نوه يوسف بوتشو عضو مجلس الشيوخ المصرى وأحد اليهود المشاركين فى احتفالات الجامعة العبرية بعطف الحكومة المصرية على القضية الصهيونية.

هذه قصة الجامعة العبرية وموقف مصر منها فى زمن الاحتلال البريطانى والآن نحن فى زمن مشهد تصاعد الهيمنة الأمريكية وإحكام قبضتها على العالم العربى (وفى قلبه مصر لصالح إسرائيل ومخططاتها التوسعية فهل يشهد المصريون فصلاً دموياً جديداً فى صراعهم ضد الصهيونية فى قلب القاهرة وفى ميدان التحرير بالتحديد؟!!

العربى ٢٢ مايو ٢٠٠٦

14 أهالي الجنوب اللبناني- تحية وسلام

كنت عائدة لتوى من احتفالات إريتريا بالعيد العاشر للاستقلال عندما تلقيت دعوة المجلس الثقافى للبنان الجنوبى للمشاركة فى اللقاء العربى فى إطار التحالف من أجل عالم متضامن ومسئول احتفالاً بمرور العام الأول على تحرير الجنوب اللبنانى.. تدفق بداخلى طوفان من المشاعر الجياشة والذكريات التى أعادتنى إلى الحقبة المضيئة فى تاريخ جيلى، حقبة الستينات، حيث كانت حركات التحرر الوطنى فى أوج ازدهارها وتألقها وتزاحمت الذكريات عن حركات التحرر العربية والأفريقية التى عاصرناها، وعشنا معها معاركها، وشاركنا أبطالها وزعماءها احتفالات الاستقلال، فى الجزائر وزيمبابوى وناميبيا وإريتريا وجنوب أفريقيا وها هو جنوب لبنان. وعلى الطريق سوف تأتى حتما فلسطين التى قد لا نشهدها، ولكن جيل أحفادى سوف يشارك فيها.

فى إطار حديثى بالندوة عن المقاومة الوطنية لأساليب الاختراق الصهيونى للعام العربى، تناولت التجربة المصرية فى مقاومة الغزو الثقافى والإعلامى الصهيونى، منذ وعد بلفور حتى قيام الكيان الصهيونى، وصولاً إلى اتفاقية كامب ديفيد المرفوضة من جموع الشعب المصرى، ثم ربطت المقاومة المصرية بالإعلام المقاوم فى الجنوب اللبنانى. كان اللقاء يضم نخبة من المفكرين والباحثين من سوريا وفلسطين وتونس والعراق والجزائر ولبنان وشيلى وبيرو وفرنسا. استضافتنا دار العناية بعبداً، وهى مؤسسة لبنانية تابعة للروم الكاثوليك، تهتم برعاية الأيتام

وضحايا الحرب اللبنانية، وقد بدأت نشاطها منذ عام ١٩٦٨، وتضم حاليا ٣٥٠ طفلاً يمثلون ١٨ طائفة لبنانية. ويرجع الفضل فى إنشائها إلى الأب سليم غزال نائب البطريرك، ويقول الأب أنطوان سعد مدير الدار. (لقد تعرضت الدار للقصف الإسرائيلى المباشر مرتين، خلال عامى ١٩٨٢، ١٩٨٥. ورغم ذلك استطعنا أن نستضيف حوالى ١٥ ألف لاجئ فلسطينى لمدة شهر كامل، بعد قصف المخيمات الفلسطينية، ويجاور دار العناية مبنى حلقة التنمية والحوار، التى تأسست عام ١٩٨٩، لإرساء فكرة الحوار وقبول الآخر بعد فشل جميع الطوائف فى إيجاد صيغة شاملة تضم جميع اللبنانيين. ويشارك فى أنشطة الدار قطاع عريض من الشباب اللبنانى، يمثلون جميع التيارات السياسية والدينية، من حركة أمل إلى الحزب الاشتراكى حتى جيش لبنان الجنوبى. وتقوم بتنظيم برامج ثقافية تربوية تتيح للشباب اللبنانى، من جميع الطوائف، اللقاء والتواصل.

كان برنامجنا مزدحماً بالمحاضرات والزيارات ورغم أن الوفود كانت تضم ضيوفاً تجاوز عمر بعضهم الثمانين عاماً، إلا أنه كان هناك إصرار ملحوظ من الجميع، على أن نزور كل شبر من أرض الجنوب، وأن تمتد أيادينا كى تصافح كل يد ارتفعت فى وجه العدو الصهيونى، وقاومت ببسالة حتى آخر قطرة.

البداية فى صيدا

كانت البداية فى صيدا. بدأنا بزيارة مبنى عتيق عمره ٤٠٠ عاماً، يطلق عليه اسم الخان، تمتلكه الحكومة الفرنسية، وتستأجره حالياً إحدى الجمعيات الأهلية اللبنانية، وقد خصصته للشباب الجنوبى لممارسة الأنشطة الثقافية والاجتماعية، ثم اندفعنا فى شوق ولهفة، إلى الأزقة والحوارى القديمة، نتواصل مع هؤلاء الصامدين، الذين ظلوا يقامون على مدى عقدين من الزمان، أهوال الحرب الأهلية

الآتية من الشمال، وجحيم الاعتداءات الصهيونية جنوباً. استقبلونا بالترحاب والحفاوة، وسط أكوام من السلع الشعبية؛ ملابس – صابون يصنع يدوياً – قباقيب خشبية – فاكهة – خضراوات، كنا نبادرهم بالتحية والتهنئة بالنصر، ونسألهم عن الأحوال، أجاب بائع القباقيب الخشبية المستنير قائلاً : لقد خسرت قوى الجنوب أكثر من نصف سكانها، نتيجة النزوح والهجرة، مما أدى إلى تدهور الأرض الزراعية، خصوصاً فى مرجعيون والنبطية وصيدا. وقام العدو الصهيونى بضم مساحات واسعة من الأراضى، وتحولت عدة قرى ومزارع لبنانية إلى مستعمرات صهيونية، مثل هونين وصالحا والمالكية والصالحية والمنصورة وطربيخا وأبل القمح، ويقيم سكان هذه القرى حالياً فى أحياء البؤس عند مدخل العاصمة بيروت، وتستكمل الحديث فتاة جنوبية شاركت فى المقاومة، واعتقلت بسجن الخيام، وتتاجر الآن فى بعض الخردوات النسائية. تقول (لقد أدى التهجير من الشريط الحدودى إلى انتقال السكان إلى شريط حدودى جديد، مؤلف من الأكواخ والمساكن العشوائية، يلتف كحزام جديد للبؤس حول بيروت الغربية والضاحية الجنوبية، تسكنه آلاف الأسر المهجرة، والمشردة من الجنوب.

خطة إنمائية

يستوقفنا سامر حجازى، أحد شباب قرية حولا، وقد اعتقل عام ١٩٩٤ بتهمة تعاونه مع الحزب الشيوعى اللبنانى، وأمضى ٧ سنوات فى سجن الخيام، يقول (لقد شاركت كل القوى الوطنية فى مقاومة الاحتلال الصهيونى للجنوب اللبنانى. وإذا كانت مسألة تحرير الجنوب تبدو معقدة على المستوى السياسى، لارتباطها وتشابكها مع أوضاع إقليمية ودولية، إلا أن القضية الاجتماعية، أو الشق الاجتماعى للقضية الوطنية، يبدو واضحاً وشديد الإلحاح، لأن إنهاء الاحتلال

الإسرائيلى، لابد أن تتبعه خطة إنمائية شاملة ومتكاملة، لإعمار القرى والمدن التى دمرتها الحرب، والمساعدة فى استصلاح الأراضى التى تحولت إلى أسطح صخرية جرداء. ولابد من الاستفادة من مياه الليطانى، وتوفيرها للقرى، التى مازالت تعتمد على البرك الترابية.

ويستطرد سامر وقد امتلأ وجهه بالغضب النبيل قائلاً: لقد استمد الجنوب شخصيته من أرضه ومناخه ومياهه، والبشر الذين يعيشون فوق أرضه. وظاهرة المقاومة تعكس الارتباط السحرى الوثيق بين الإنسان والأرض. وهذا هو سر صمود الجنوب. ولذلك برز الجنوب باعتباره خط الدفاع الاستراتيجى الأول عن وحدة وسيادة لبنان).

تذكرت حينئذ المعلومة التى زودنى بها الأب أنطوان، والتى تشير إلى أن تعداد الجنوب اللبنانى، حسب إحصاءات ١٩٩٢، يصل إلى ٣٨٪ من مجمل سكان لبنان، وأن المنطقة التى كانت تحتلها إسرائيل فى الجنوب، تضم ١٠٦ بين قرى ومدن، إضافة إلى ٧٥ مزرعة.

فى اليوم التالى انتقلنا إلى النبطية، وتعرف باسم قاعدة جبل عامل. وهى مدينة عريقة فى العالم العربي، وفيها تأسست أمهات المدارس الفقهية كما أنها عريقة فى المواجهة ضد إسرائيل، وكثيراً ما تعالت هتافات أبنائها فى الخمسينيات والستينيات: «يا طلاب الحرية مراكش عربية، والجزائر عربية»، وبدأت جولتنا بالمرور على قرية أرنون، التى اقتحم الشباب اللبنانى الأسلاك الشائكة، ودخلوها، وأجبروا الإسرائيليين على الانسحاب منها ٢٢ فبراير ١٩٩٩، ثم صعدنا إلى قلعة شقيف، التى تطل على مشارف فلسطين، ومررنا ببقايا الحصون والمواقع الإسرائيلية فى المنطقة، وعلى الجانب الآخر كانت ترتفع بيوت مرجعيون، شامخة. ثم مررنا بموقع

زفاته، بمحاذاة النبطية ومرجعيون. وكانت ترفرف على الجبال المحيطة، أعلام حزب الله، إشارة إلى تحريرها فى ٢٣ مايو ٢٠٠٠، اخذت السيارة تهبط وتدور فى حركة حلزونية مبهرة، فى منطقة الخردلة، على ضفاف نهر الليطانى، حيث قام الإسرائيليون بتدمير الشجر والبيوت فى هذه المنطقة. ولكن حزب الله حولها بعد التحرير إلى منتجعات سياحية، تتناثر على طول الطريق اللافتات الصفراء الضخمة، تشير إلى عمليات الاستشهاد، وأبرزها عملية الشهيد الحى، الذى نفذ العملية بمفرده ، وعاد سليما فى منطقة تل لوبيا.

أدقق النظر فى إحدى اللافتات اقرأ العبارة التالية (التحرير عيد الأعياد، نزع الألغام، بدء الحصاد) تساءلت وأجابني زياد ماجد الشاب الجنوبى، ابن قرية خربة سلم. يقول (تنتشر فى هذه المنطقة الألغام التى تركها الإسرائيليون. وقد قدمت الدول العربية، بمساعدة القوات الدولية، اسهامات كبيرة لإزالة هذه الإلغام. وكان الإسرائيليون يقيمون الحصون لحماية أنفسهم وكانوا يختبئون خلف جيش لحد العميل، الذى كان يتصدى مباشرة لضربات المقاومة. فى منطقة الوزانى على حدود فلسطين، وعلى امتداد الشريط الحدودى نشاهد المستعمرات الصهيونية، خصوصاً مستعمرة المطلة. ونقف لبرهة عند بوابة فاطمة، التى تقع على حدود كفر كلا المتاخمة للحدود الفلسطينية. وهناك يتفرع الطريق إلى طريقين، أحدهما ممهد يتبع لبنان، والثانى ترابى يتبع فلسطين. من هى فاطمة؟ أتساءل. ويرد رفيق الرحلة: تبدأ الحكاية أثناء فترة التهجير الفلسطينى عام ١٩٤٨ عندما أصيبت إحدى النساء الفلسطينيات بالرصاص الإسرائيلى، وسقطت مغشياً عليها عند هذه البقعة، ومنذ ذلك الوقت أطلق الأهالى على هذا المكان اسم بوابة فاطمة.. على مدد البصر تمتد أمامنا فلسطين المحتلة. مستعمرة المطله، وقرية أبل القمح، وخلفهما مستعمرة

كريات شمونة. وعلى الجانب الآخر تبدو من بعيد ضيعة الغجر السورية، التى تقع على الحدود السورية اللبنانية، ولا تزال تحت الاحتلال الإسرائيلى. هنا تنتشر أعلام حزب الله الصفراء، وأعلام حركة أمل الخضراء، ويرتفع خلفها جبل جرمق الفلسطينى، وتتعالى أغانى النصر ينشدها شباب حزب الله يوزعون ميداليات تحمل صور الشيخ حسن نصر الله.

معتقل الخيام

أمام مدخل معتقل الخيام تظهر أمامنا مزارع شبعا، على الجهة الشرقية، فوق التلال، ثم تظهر خلفها على البعد قليلاً قرية مجدل شمس الجولانية. ويشير الأصدقاء الجنوبيون إلى قرية كفر شوبا اللبنانية، التى لا يزال جزء من أراضيها محتلاً.

دخلنا إلى مبنى المعتقل الذى أصبح مزاراً سياحياً، والذى ارتبط اسمه فى ذاكرتنا بأسماء العديد من المناضلين، الذى قاوموا ببسالة وحشية التعذيب الإسرائيلى، تتصدر واجهة المعتقل قائمة بأسماء الشهداء، الذين سقطوا داخل المعتقل منذ عام ١٩٨٤، وأسماء قراهم، وقد كتب أمام كل اسم، الطريقة التى عذب بها. قنبلة غازية، أو مرض، أو أسلاك كهربائية فى أماكن حساسة. وتجاور هذه القائمة لوحة تحمل أسماء السفاحين من السجانين، والمحققين والممرضين المزيفين، وأسماء قراهم.. مرجعيون – القليعة – الميه ميه – دير ميماس – العيشية – كفر كلا – برج الملوك – جزين. وعلى مدخل إحدى الزنازين بسجن النساء قرأت هذه العبارة (باحة للشمس للإناث كل عشرة أيام.. عشر دقائق) كانت ترافقنا كفاح عفيفى، مناضلة فلسطينية من مخيم شاتيلا، بدأت تحكى لنا تجربتها من داخل الزنزانة التى أمضت بها ٧ سنوات، منذ وقوعها أسيرة فى أيدى الإسرائيليين عام ١٩٨٨، وتم

الإفراج عنها عام ١٩٩٥. تقول: لقد شاركت فى عملية شهداء الانتفاضة من قوات صبرا وشاتيلا. وقد وقعت فى الأسر عقب إحدى العمليات، التى استغرقت ثلاثة أيام من السير المنهك، وسط الجبال. ثم وقعت مجموعتى فى أيدى أحد عملاء إسرائيل،، فى ضيعة كفر كلا. واشتبكنا مع قوات لحد، وأصيب اثنان من المجموعة وقام الإسرائيليون بوضعهما فى طريقى كحاجز، لحماية جيش العملاء من المتفجرات، التى كنت أحملها. ولكننى قمت بتفجير بيت العميل، فهجمت على النساء وأوسعتنى ضرباً. فى تلك اللحظة تم القبض على، وأسرت فى معتقل الخيام. وكانت المعاملة سيئة جداً، لأننى كنت أنا وسهى بشارة الأسيرتين الوحيدتين. وسوء المعاملة يرجع إلى عدم التزام السجن بلائحة معاملة الأسرى والمسجونين. ولم يكن مسموحاً للصليب الأحمر بزيارتنا. وكنت فى البداية وحيدة فى زنزانة، ثم انتقلنا إلى عنبر به ٥ معتقلات لبنانيات، ينتمين إلى قرى الشريط الحدودى مركباً وعيترون وحولا. وقد ظل معتقل الخيام دون رعاية إنسانية من ١٩٨٥ حتى ١٩٩٥ عندما سمح للصليب الأحمر بالدخول. كنا فى قطيعة تامة مع العالم الخارجى. وقد أصبنا بالأمراض المعدية. وماذا تفعلين الآن يا كفاح؟ سألتها، وأجابت: لقد كرست حياتى لرعاية المعتقلين، وللقضية الوطنية، وقد خصصنا يوم ٣ يوليو للتضامن مع الأسرى والمعتقلين، وسوف نعتصم فى الشوارع حتى يتم توفير وظائف لنا. (لبنان لنا وليست للعملاء والسجن للعملاء وليس للشرفاء) كانت حوائط الزنازين مليئة بالشعارات وأسماء المعتقلين من جميع التيارات السياسية! الشيوعيين والقوميين وحزب الله.

زرنا زنزانة سهى بشارة التى أمضت بها ٦ أعوام، ولا تزيد مساحتها عن متر فى متر ونصف، تقول كفاح فى عام ١٩٨٨ وصل عدد النساء المعتقلات ٣٨ مناضلة،

كن يقيمن فى ٤ حجرات، مكتوب فوقها سجن النساء الجماعى. وهناك غرفة مخصصة للتحقيق، والتعذيب بالكهرباء.

وكانت هناك فتحة صغيرة يطل منها المناضل على أهله، حيث كان يستخدمها المحقق لإجبار المناضلين على الاعتراف.

فى باحة التعذيب توجد لافتة كتب عليها رفس – ركل – ضرب – كهرباء – صب مياه ساخنة – وضع الكلب إلى جانب المعتقل، ولافتة كتب عليها أسماء الذين استشهدوا على العمود تحت التعذيب.

أما غرفة الحمام، فقد ارتفعت فوقها لافتة تقول (الحمام كل عشرين يوماً ٥ دقائق ماء بارد) والمعروف أن هذه المنطقة تغطيها الثلوج فى الشتاء، وتصل درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر، وعند الخروج من مبنى المعتقل صادفتنا لافتة ضخمة تحمل صورة الأسرى الإسرائيليين الثلاثة، وقد كتب عليها (انتظرونا حيث تحتسبون وحيث لا تحتسبون).

العملاء

أخبرتنى دينا مقلد، إحدى الصامدات فى الجنوب، أن العملاء المجندين فى ميليشيات لحد، كان يبلغ إجمالى عددهم ٣٢٥٠ مجنداً، منهم ١٢٥٠ من قرى مرجعيون، وألف من قرى بنت جبيل، ٧٥٠ من جزين وشرق صبرا، ٢٥٠ من صاحبيا، ويبلغ عدد العاملين فى إسرائيل من أبناء المنطقة المحتلة ١٥٠٠ شخص، معظمهم من الفتيات كانوا يعملون فى الخياطة والمطاعم والفنادق، وقطف الثمار، ومصانع الشيكولاته.

ولاشك أن تجاهل الدولة اللبنانية ومؤسساتها للجنوب وأبنائه، وعلى الأخص

الأسرى المحررون، يضاعف الأزمة المعيشية، ويدفع بعدد كبير من أبناء الجنوب وقواه العاملة إلى القبضة الإسرائيلية، وهذا يشكل اختراقاً إسرائيلياً أخطر من الاختراق الأمنى، ويمثل أحد جسور التطبيع الإجبارى مع العدو الصهيونى. وإذا كانت الدولة قد حسمت موقفها من المقاومة، خصوصاً بعد تحرير الجنوب، باعتبارها ظاهرة صحية فى وطن محتل، إلا أن هذا الموقف لا يكفى وحده، بل يستلزم أن تصاحبه سلسلة من التدابير الاستثنائية، تعيد ربط الجنوب إدارياً وثقافياً وإعلامياً وسياسياً بالوطن. فهذا هو الموقف الوطنى الذى يتجاوز الولاءات الطائفية والمذهبية، ويحسم مسألة الانتماء للوطن، خارج الطوائف، فليس الجنوب لأهله فقط بل هو جزء من الوطن اللبنانى، ومسئولية تنميته وتطويره بعد التحرير لا تقع على أهله وسكانه فقط بل على جميع اللبنانيين. هكذا أكد لى جميع من قابلتهم فى الجنوب اللبنانى المحرر.

وأخيراً.. لقد ختمنا جولتنا فى الجنوب اللبنانى بزيارة متحف شربل فارس، الفنان التشكيلى، ابن قرية صربا الجنوبية، الذى عبر بالريشة والأزميل عن ملحمة الجنوب، وأبطال المقاومة الصامدين. وقد شاهدنا ذلك مجسداً فى تمثال لناجى العلى، وتمثال يتصدر باحة المتحف بعنوان رقصة المقاومة، وتمثال المقاوم المجهول، عدا عشرات اللوحات التى شارك بها فى العديد من المعارض اللبنانية والدولية، تحت عنوان كل الجهات جنوب – نهوض – انتظار – وجه بكرى.

الأهالى - ١٨ يوليو ٢٠٠١

15 مجدل شمس .. تحية وسلاماً

الجولان .. سيطرت على مخيلتى عندما تلقيت الدعوة من قسم الصحافة بجامعة دمشق للمشاركة فى المؤتمر الذى ينظمه القسم عن «الإعلام العربى بين الاستقلال والتبعية».. وافقت على الفور من أجل أن تتاح لى فرصة زيارة الجولان . وبعد انتهاء أعمال المؤتمر نظم لى الزملاء السوريون الزيارة التى استلزمت استخراج تصريح رسمى، لأنها منطقة عسكرية . وبدأنا الرحلة فى الصباح المبكر.

تنتشر على امتداد الطريق القرى الصغيرة بيت جن، وحياتا الخشب وجياتا وحضر خان، وأرنيه وحميديه وسحيتنا ولافتات المدارس تحمل أسماء الشهداء. ويمتلئ الطريق على الجانبين بالأطفال يحملون حقائب الكتب على ظهورهم. عدد قرى الجولان ٢١ قرية : هكذا أخبرنى رفيق الرحلة. وقد قام الإسرائيليون بتدمير جزء كبير منها. رأينا أنقاض المنازل والمستشفيات والدكاكين والأندية تنطق بمدى الحقد الصهيونى الذى ذكرنى بما فعلوه فى ياميت، عندما زرت سيناء عام ١٩٨٣، ورأيت كتاباتهم العبرية على الحوائط وترجمتها «سنعود قريباً». ولم يتبق من قرى الجولان سوى خمس قرى هى مجدل شمس، ومسعده، وعين قتيه، وبفعاثا والفجر. كان عدد سكانها عند بدء الاحتلال الإسرائيلى ١٤ ألف نسمة أصبح عددهم الآن ٢٩ ألف نسمة يعيشون على زراعة التفاح واللوز، كما أقاموا عدة مصانع صغيرة للجوارب والصابون وإصلاح السيارات، ويشترون لوازمهم الحياتية من الناصرة والضفة الغربية والقدس وغزة ، ولا يتعاملون مع محلات اليهود.. هكذا أكد لى

دليل الرحلة «أبو حسن».

المنطقة زاخرة بالخضرة والجبال المكسوة بالزهور وأشجار الفواكه ويظللها الجبل الأكبر، أى جبل الشيخ، الذى تتناثر فوق سطحه الرمادى رسوم بيضاء أقرب إلى الرسوم الطبيعية . أخبرونى أنها ثلوج وجليد.

استغرقت الرحلة ساعتين .. وعندما وصلنا إلى أعلى ربوة تطل على الخط الحدودى بين الجولان المحتلة وسائر أنحاء الجولان داخل الأراضى السورية.. وقفت مع رفاق الرحلة فوق التبة العالية أنظر إلى الضفة الأخرى عبر وادى أخضر اسمه عين التينة. سمعت صوت المرأة الجولانية تنادى شقيقها، عبر الأسلاك الشائكة، تتحدث من قرية مجدل شمس.. تسأله عن أحوال الشباب، وتقول له: «بيت أبو فارس بيسلموا عليك»، ويرد عليها شقيقها فى الجانب الآخر. على الفور. قفز إلى ذاكرتى المشهد نفسه عند مدينة رفح: حيث تفصل الأسلاك الشائكة بين شطرى المدنية، وأفراد الأسرة الواحدة المشطورة نصفين ، أحدهما المصرية والآخر فى رفح المحتلة ، يتبادلون الأخبار والأشواق ومعاناة الفراق على أبواب الخط الحدودي. التفت إلى يسارى فوجدت قبراً يحيطه سياج حديدى فى أعلى الربوة. فلما سألت عن هذا القبر أخبرونى أن صاحبه قد أوصى بأن يدفن على أبواب مجدل شمس إذا لم تكن الجولان قد عادت بعد إلى سوريا. وقد حدث. لم أتوقف عن الحوار الصامت مع المشهد كله. زهوة الطبيعة، وصمود البشر، وشموخ الجبل.. الذى تتناثر فوق قممه ٤ مراصد إسرائيلية يرصدون من خلالها كل ما يجرى داخل الوطن السورى. هاجمنى سيل من الذكريات عن المدن العربية التى اغتصبتها إسرائيل. ولم أفق إلا على صوت «أبو حسن»، دليل المنطقة، الذى تحدث بصوت يملؤه الشجن والإصرار عن مجيء الأهالى كل أسبوع فى يوم متفق عليه .. يتحدثون

إلى ذويهم من الأهالى، الذين يعيشون داخل قرى الجولان المحتلة من خلال الميكروفونات. وعندما تتزوج واحدة من بناتهم بأحد أقاربها فى الجولان المحتلة يقيمون الفرح وتأتى العروس من دمشق فى زفة كبيرة. وعند الأسلاك الشائكة يودعونها ويتسلمها جنود الأمم المتحدة .. حيث تجد عريسها وأقاربه فى انتظارها، ويستكملون الفرح داخل قرى الجولان المحتلة.

شكيب أبو جبل

فى المساء.. اصطحبتنى الدكتورة خيرية قاسمية، أستاذة التاريخ الفلسطينى بجامعة دمشق، إلى منزل مناضل جولانى أمضى ثلاثة عشر عاماً فى السجن الإسرائيلية ويعيش الآن فى إحدى ضواحى دمشق النائية، فى بيت تحيط به حديقة صغيرة يزرعها بنفسه وتضم كل أنواع الزهور والفواكه الجولانية. تتصدر بهو المنزل صورة كبيرة ظاهرة تضم أهالى مجدل شمس أثناء اشتباكهم مع العدو الإسرائيلى عام ١٩٨٢ احتجاجاً على قرار ضم الجولان وفرض الجنسية الإسرائيلية. كانوا يحملون لافتات كتب عليها (المنية ولا الهوية)، وتتناثر فوق حوائط البهو صور ورسوم ولوحات رسمها المناضل شكيب أبو جبل أثناء وجوده بالسجن عناوين مثل: ورد الشام (اسم زوجته)، و(زيت قنديلنا لن ينضب) و(الجولان عربية) و(أحلى بلاد بلادنا)، وعصفور فى قفص وكروت معايدة كان يوزعها على رفاق السجن لإرسالها إلى الأهالى فى المناسبات.

«أنا لا أملك مصباحاً أحرض به قومى على ثورة، ولكننى أملك مصباح تجاربى الشخصية». بهذه الكلمات بدأ حديثه معى. إنه شكيب يوسف أبو جبل، ابن الرامة فى الجليل الأعلى بفلسطين . ولد عام ١٩٢٥ عاش فى مجدل شمس المحتلة، أول بلد تشرق عليه الشمس فوق سفوح جبل الشيخ. كان والده جندياً فى الجيش العثمانى،

وكان يقرأ مجلة «الهلال». بدأ نشاطه فى الدائرة الأمنية عام ١٩٥١، وكانت مهمته اختراق جبهة العدو، وكشف عملائه داخل سوريا ولبنان. وقد تم تسريحه عام ١٩٦١ بعد انفصال مصر عن سوريا. بحجة انتمائه إلى الناصرية. تفرغ لزراعة بستانه حتى عام ١٩٦٤ بعد قيام ثورة آذار، حيث استدعى إلى دمشق للعمل مع الأمن القومى ضد إسرائيل ، وظل معهم حتى عام ١٩٦٧. وبعد احتلال الجولان غادرها إلى دمشق وظلت الأسرة فى مجدل شمس وخلال الفترة من ١٤/ ٦/ ١٩٦٧ إلى ١٨/ ٢/ ١٩٦٩ عبر ٤٦ مرة إلى داخل الجولان المحتلة لتنظيم العمل السرى. وقد تم اعتقاله لمدة ٤ أشهر، ثم أطلق سراحه واستمر فى العمل خلف خطوط العدو حتى ليلة ٢١ يناير ١٩٧٣، حيث استشهد ابنه عزت عندما كان ينقل معلومات عسكرية و(٦٢ تقريرا عسكرياً و١٣ مجلة وصحيفة و٤ مخططات عن مواقع العدو فى الجولان) استولى عليها العدو وتم اعتقاله مع ٦٢ شخصياً بعد أن كشف العدو خلية كاملة للعمل الوطنى. يستكمل شكيب أبو جبل حديثه قائلا: وضعونا فى سجن الجلما بجوار حيفا، وقد تردد علىَّ خلال ثلاثة أشهر حوالى ٧٠ محققا إسرائيليا: بعضهم يدعى انه طبيب والآخر تاجر تفاح .. وكان الهدف استنطاقى للحصول على مزيد من المعلومات ، ثم احالونى إلى محكمة عسكرية مؤلفة من ثلاثة ضباط يمثلون الأسلحة الثلاثة: البرية والبحرية والجوية، ويرأسهم العميد همفرى، وهو صهيونى حاقد من أصل ألمانى.

وقد وجهوا لى ٢٣ تهمة وصدر الحكم بـ٣١٥ سنة منها ٣٠ سنة فعليه والباقى مع إيقاف التنفيذ.

تحدث المناضل أبو جبل عن حياته داخل السجون الإسرائيلية، فيقول : كان عددنا ٦ آلاف معتقل، منهم ٨٠ سوريا والباقى فلسطينيون من جميع الفصائل ..

شكلنا لجانا ثقافية ومالية وأمنية ولجنة مركزية داخل السجن . وخلال ١٢ عاماً قرأت ١١٨٤ كتاباً عن حركات التحرر الوطنى والآداب العالمية والقانون والتاريخ وحصلت على شهادة الثانوية على المنهج الأردنى. وقمنا بتنظيم مئات الإضرابات لمساندة حركات التحرر العربية والعالمية، واذكر منها سوابو فى ناميبيا، وجبهة تحرير السلفادور، والجيش الجمهورى الأيرلندى، وفيتنام ، وكوبا، وجنوب إفريقيا. وتمكنا فى السجن من إعدام ١٣ عميلاً قام العدو بدسهم بيننا، ومن أبرزهم العميل فائز القمحاوى الذى قام برش سموم العقم على مدارس البنات فى يعيد وفياطيه وچينين فى شمال الضفة الغربية. وقد صدر حكم الإعدام لقمحاوى وتم إعدامه فى سجن الرملة فى غرفة العبور، وقام بإعدامه الرفيق دوحان الذى كان محكوماً عليه بالمؤبد. وعندما جاء السجان لعد المساجين قلنا له: اخرجوا هذا الكلب من بيننا. وقال دوحان : «لقد أعدمته لأنه خان شعبه». وقد تم إحالة «دوحان» للمحاكمة، وصدر ضده حكم بالمؤبد لرابع مرة ! وهو يعيش الآن طليقاً فى مخيم فلسطين قرب دمشق، بعد الإفراج عنه فى عملية الجليل لتبادل الأسرى».

يستطرد أبو جبل - يملؤه الزهو والانتعاش - قائلاً: «لقد أفرج عنى يوم ٢٨ يونية ١٩٨٤، فى عملية تبادل الأسرى بين سوريا وإسرائيل، وكنت ضمن ٢٩٠ جندياً سوريا وقعوا فى الأسر أثناء الغزو الإسرائيلى للبنان ١٩٨٢. وقد تنقلت بين عدة سجون إسرائيلية. أمضيت ٥ أعوام فى سجن الرملة المركزى، حيث وضعونا فى غرف كانت تستخدم إسطبلات لخيل البوليس البريطانى. وأمضيت ٧ سنوات فى سجن چنين. وكانت المعاملة سيئة للغاية. ولم نتوقف عن الاشتباك اليومى مع البوليس الإسرائيلى من أجل المطالبة بتحسين أوضاعنا. وكان اتصالنا بالخارج عن طريق الصليب الأحمر.. وقد ظللت ١١ عاماً، لا أرى زوجتى وابنتى كاميليا وأميرة . أما

ابنى يوسف فقد كان معى بالسجن طيلة الـ ١٢ عاماً. وسائر أفراد أسرتى من الرجال.. تم اعتقالهم جميعاً خمسة من أبناء شقيقى فؤاد وحسن، وستة من أولاد عمومتى، وشقيق زوجتى، وابن شقيقها الآخر، وخطيب ابنتى وزوج ابنتى نجية. وتراوحت الأحكام بين ٩ سنوات و٣٠عاماً. وقد أفرج عنهم ولكن لا يزال العمل الوطنى السرى فى الجولان مستمراً ضد قوات الاحتلال حتى زواله.

ولعلمك فإن ربع سكان الجولان المحتل دخلوا سجون الاحتلال. أثناء تجوالنا فى منزله، طلبت منه أن يحكى لى قصة اللوحة الكبيرة التى تتصدر بهو المنزل . بدأ يتدفق بحماس، وهو يستعيد لحظة قيام المظاهرات. قال: بعد قرار ضم الجولان إلى إسرائيل فى ١٤ يناير ١٩٨١، نظم الأهالى إضرابا استمر ٦ أشهر رفضاً لقرار الضم والجنسية الإسرائيلية ، وتمكنوا من إفشال كل مخططات العدو من الترهيب والتهويد، والذى تمثل فى تغيير المناهج التعليمية والسيطرة على المدارس وموارد المياه وفرض الضرائب الباهظة. وقد رفض المعلمون تدريس المناهج الإسرائيلية.. فزج بهم العدو فى السجون .. كما حاول العدو الإسرائيلى تطبيق سياسة فرق تسد فى المجال التعليم بمحاولة إحياء مادة التراث الدرزى، وإلغاء التاريخ العربى للجولان فرد عليهم الشاعر نايف سليم من قرية البقيعة، بالجليل الغربى، وهو محكوم عليه بالإقامة الجبرية بمنزله منذ عشرين عاماً. قال فى ديوانه (جيليلات) إن درزتم أو كثلكتم أو شركستم.. الأرض بتتكلم عربى.

المرأة الجولانية

أخيراً .. جاء دور المراة الجولانية . تحدثت د. كامليا أبو جبل ، ابنة مجدل شمس والأستاذة بجامعة دمشق . كان عمرها ٩ سنوات عندما بدأ الاحتلال الإسرائيلى للجولان . بدايتها يوم وفاة الزعيم عبدالناصر.. مظاهرات وهتافات . وكانت

الدبابة الإسرائيلية تحتل الساحة فى القرية . والتف حولها الشباب والأطفال .. حاصروها . وكان لحزن يملأ كل بيت وقمنا بتعطيل الدراسة إجباريا وظل هذا تقليدا نقوم به فى كل مناسبة وطنية. وظل الوضع هكذا حتى عام ١٩٧٣ عندما استشهد أخى عزت واعتقل والدى. كنت أقوم بحمل الرسائل والصحف والخرائط وتوصيلها لنقطة الحدود. وقد كلفنى شقيقى قبل استشهاده بعام بحمل ثلاث رسائل ملغمة إلى «كريات شمونه» ضمن العمل السرى ضد العدو. وبعد استشهاد شقيقى واعتقال والدى وجميع أقاربى .. أصبحت مسئولة عن رعاية الأسرة والبستان . وقد منعتنا قوات الاحتلال من الوصول إلى البستان بالمنطقة الحدودية. وكانت مصدر رزقنا الوحيد. وأعطيناه لشخص لم يحسن إدارته وعشنا على الكفاف .. وفى ذلك الوقت قمت بتشكيل خلية من الأقارب لمقاومة العدو الإسرائيلى وتنظيم عبورنا للحدود والاتصال بالسلطات السورية لتوصيل أخبار المعتقلين وأخبار العدو وتحركاته. كنا أربعة، ثلاثة شبان وأنا، وقد انكشفت الخلية فى ٢٩ يونية ١٩٧٤، واعتقل زملائي، وهربت أنا وابن عمى، وعبرنا قريتنا مجدل شمس إلى الحدود السورية ، ودخلنا إلى دمشق.

واستمرت الأسرة فى داخل الجولان المحتل. عشت عاماً كاملاً بمفردى حصلت خلاله على الثانوية العامة والتحقت بجامعة دمشق باستثناء من الرئيس ثم أحضرت الأسرة عن طريق الصليب الأحمر عام ١٩٧٥ وواصلت دراستى الجامعية ثم العليا حتى حصولى على الدكتوراه عن (يهود اليمن، دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين). عندما حلت لحظة الوداع عانقونى وحملونى أمانة أن أزور قبر عبدالناصر وأقرأ له الفاتحة . وقد حدث.

الأهالى - ٢٠٠٥